تاريخ ثورة موريسكيي مملكة غرناطة وعقابهم

الكتاب التاسع

الفصل الأول

يتناول كيف اجتمع الحبقى وقادة آخرون من المسلمين، مع السادة المندوبين في بلدة فوندون في أندرش، من أجل التباحث في شأن الاستسلام.

كان السيد خوان دى أوستريا يظهر تعجلاً شديداً للانتهاء من مسألة إخضاع الثوار في أثناء معاناتهم من الجوع، حيث كان يدرك أنه بحلول نهاية شهر مايو سيصبح لديهم مائدة عامرة من الفواكه التي تنتجها الأرض. كما أنه سيبيت لزاماً إقحام الجيش من جديد، وهو ما يستدعي تكبد تكاليف باهظة وخوض صعاب بالغة؛ خاصةً أن الحبقى كان يدير الأمور على ما يرام. وكان الكثير من الثوار يحضرون لتسليم أنفسهم. كان البعض يأتى مدفوعاً بالخوف من الموت وبالأمل في العفو، وقد حرك آخرين الحبّ الذى يشعرون به تجاه نسائهم وأولادهم الأسارى، والتفكير في افتدائهم، بينما كان الجميع يهدف -في الأغلب الأعم- إلى إحلال السلام والطمأنينة، بعد أن أضنتهم كل تلك الصعوبات والنكبات. في أعقاب اجتماع السادة الذين أوفدهم السيد خوان دى أوستريا في المعسكر الموجود ببادوليس، بعد أن أمرهم بالمجيء لتولى ذلك الشأن، وصل إلى فوندون في أندرش في اليوم الثالث عشر من شهر مايو كل من: إيرناندو الحبقى، وإيرناندو الغالب Hernando el Galip -شقيق ابن عبو-، وبدرو دى مندوثا الحسين، وأحد أبناء خيرونيمو المالح، وألونسو دى بيلاسكو الغرناطى Alonso de Velasco el Granadino، وإيرناندو الغورّى؛ وذلك في رفقة اثنى عشر من الأتراك البارزين، وألف من الجنود المسلحين بالبنادق لحراستهم.

في اليوم ذاته راسل الحبقى السيد ألونسو دى غرانادا، ليخبره بقدومه تنفيذاً لما وعد به، لكى يتضرع السيد ألونسو إلى السيد خوان دى أوستريا من أجل المبادرة

بإرسال السادة الذين سيتولون تلك القضية. وقد أشار إليه بأن السلام والرجوع إلى خدمة جلالة الملك هو أقصى ما يتطلعون إليه، على أن يتم السماح لهم ببعض الأشياء غير المتضمنة فى سياق المرسوم. بعد أن وردت أنباء وصول الحبقى إلى فوندون فى أندرش، يرافقه القادة المسلمون والأتراك، إلى السيد خوان دى أوستريا، أمر ذلك الأخير بأن يتوجه السادة المنتدبون للنظر فى مطالبهم، على أن يرافقهم عالم اللاهوت مارين Marín والمأموران القضائيان توريّخوس وتامارين Tamarín. كان أول ما قام به المسلمون هو التركيز على عدم إمكانية الإبقاء على المراسيم، والأضرار التى ستترتب على دخولها حيز التنفيذ، والمعاملات السيئة التى كانوا يعانون منها من قبل الهيئات القضائية والمأمورين القائمين على تنفيذ أحكامها. حيث شكى القادة من عدم الالتزام بأى من العهود التى تم التوصل إليها معهم منذ إبداء رغبتهم فى الاستسلام إلى ماركيز مونديخار، وأشاروا إلى ما بدر من ألبارو فلوريس فى بالور، وما أقدم عليه بيّالتا فى لاروليس، والنساء اللواتى تم أسرهن فى قلهرّة فى أثناء توجههن لتسليم أنفسهن. كما أظهر القادة أسفهم الشديد إزاء اقتياد الموريسكيين الذين لم يقوموا بالثورة إلى قشتالة، وقالوا إنه إذا كان هذا هو ما يجرى لمن حافظوا على ولائهم، فما هى المعاملة التى يمكن أن يتوقعها الثوار؟

فى نهاية الأمر قالوا إن مسعاهم هو أن يولى عليهم السيد خوان دى أوستريا أشخاصًا يحظون بثقتهم، وأن يقبلوا من يأتون إليهم للاستسلام، ويدخلوهم فى كنفهم، على أن يتوجه كل منهم للبلدة التى ينتمى إليها. بالإضافة إلى السماح لأهل شمال إفريقيا بالعبور فى حرية، لأن هؤلاء ما جاءوا إلا لمساعدتهم، وهم لا يريدون أن ينالهم أذى. وأن يعينهم المسيحيين على إنقاذ نسائهم وبنيهم، وألا يُسمح بإخراجهم من قشتالة، وهم سيبادرون بتسليم كل المسيحيين الأسارى لديهم. إلى جانب أن يُتركوا ليعيشوا فى مملكة غرناطة، وأن يعود من تم إيداعهم بالبقاع الداخلية. كما يتم الإبقاء على التدابير التى كانت موجودة آنفًا، وأنه بمجرد استسلامهم والصفح عما بدر منهم إلى ذلك اليوم، فلابد أن يصدر عفو شامل فى حقهم، دون أن يقوم أى فرد بالطعن فى أى من الأحكام الصادرة بشأنهم.

بادر السادة المندوبون بإرسال السيد إيرنان بايى دى بالاثيوس لكى يقص على السيد خوان دى اوستريا ما جرى. بلغ السيد إيرنان المعسكر بحلول منتصف الليل، واجتمع المجلس للانعقاد فى تلك الليلة. فى أعقاب طرح ما يطالب به المسلمون، كان الرد بأن يجلبوا -قبل أى شىء- تفويضًا من ابن عبو وباقى القادة الذين حضروا للاستسلام نيابةً عنهم، وأن يقدموا معه طلبهم على هيئة توسل، وأن يطلبوا فيه ما يرونه مناسبًا، على ألا يُضمّنوه سوى الأمور الملائمة فقط. حينما أدرك الأعضاء أن الثوار لم يفعلوا ذلك لجهلهم بالأسلوب الذى يتعين اتباعه، بعث إليهم خوان دى سوتو -أمين سر السيد خوان دى أوستريا، الذى كان يتولى أيضًا أمانة سر المجلس- بالنظام الذى ينبغى عليهم التقيد به حينما يودون عرض مطالبهم. رجع السيد إيرنان بايى دى بالاثيوس بذلك القرار إلى فوندون فى تلك الليلة، وقد سر المسلمون بصياغة مطالبهم على ذلك النسق. ومن أجل أن يصاغ الطلب على نحو سديد، تضرع الثوار إلى السيد خوان دى أوستريا لكى يبعث إليهم بالسيد خوان دى سوتو، لكى يكون موجودًا عند الانتهاء من إعداد المطالب، واقترحوا أن يرجع بعدها ومعه التفويض. تفرق هؤلاء وأولئك عقب التوصل إلى ذلك الاتفاق، وقد تعهد الحبقى بالرجوع فى غضون ثمانية أيام إلى المكان ذاته بالضمانات المطلوبة.

الفصل الثانى

ويتناول عودة السادة المندوبين إلى فوندون فى أندرش، والانتهاء من اتفاقية الاستسلام.

صدق الحبقى وعده، ورجع إلى بلدة فوندون فى أندرش فى يوم التاسع عشر من شهر مايو برفقة القادة الآخرين باستثناء إيرناندو الغالب، الذى لم يرغب لسوء نيته فى العودة معهم، نظرًا لمشاعر الحقد التى انتابته تجاه الحبقى، لما رآه من اعتناء السادة المسيحيين به أكثر منه. حينما بلغت أنباء قدومهم المعسكر، أمر السيد خوان دى أوستريا الأشخاص الذين كانوا قد شاركوا فى المباحثات فى المرة الفائتة أن يتوجهوا لملاقاتهم برفقة خوان دى سوتو وغارثيًا دى أرثى. فانطلق هؤلاء من المعسكر فى ذات اليوم، وقابلوا فى الطريق عشرة من المسلمين كان الحبقى قد بعث بهم كرهائن، فسلّموهم إلى السيد مارتين دى أرغوتى، الذى كان يتولى نوبة الحراسة مع فرسان كتيبته، ثم مضوا قدمًا. إبان بلوغهم موضع فوندون، قدّم إليهم الحبقى التفويض، وصاغ مطالبه على النسق الذى قال خوان دى سوتو إنه ينبغى مراعاته. وقد غادر إيرنان بايى دى بالاثيوس المكان حاملاً إياهم ومتوجهًا صوب المعسكر، حيث قدمهم إلى المجلس.

قضى السادة المندوبون تلك الليلة فى إجراء محادثات هادفة مع المسلمين، وتناول الجميع طعام العشاء معًا. إلا أن تلك المتعة كادت تتحول إلى نقمة كبرى، نظرًا لتهاون أحد قادة الفرسان فى معسكر دوق سيسا[1] يدعى بدرو دى كاسترو **Pedro de Castro**،

(١) هذه من المرات القليلة التى يمارس فيها مارمول النقد الذاتى، إذ يلقى اللوم هنا على الجانب المسيحى. (المراجع)

حيث كتب رسالة إلى الحبقى تسببت فى إثارته، وتهييج كل من حضروا لإجراء مفاوضات إرساء السلام، لأن إمكانية تجنب إنهاء المفاوضات فى ظل تلك الأجواء كان أمرًا محققًا. كان حملة الدروع التابعون لجيش دوق سيسا قد خرجوا بحثًا عن طعام للخيول، وكان الجنود يبالغون فى الابتعاد عن المعسكر فى بعض الأحايين، حتى يصبحوا على مقربة من أندرش؛ فما كان من الحبقى -انطلاقًا من رغبته فى تلافى أى عوائق، واعتقاداً منه أنه يؤدى خدمة للمسيحيين- إلا أن أمر أن يُذاع فى صفوف جيشه ألا يجسر أى مسلم على التعرض لهم بسوء. كما كاتب الدوق فى هذا الصدد، ليحيطه علمًا بالإجراء الذى اتخذه، لكى يصدر أوامره إلى حملة الدروع بعدم تخطى الحدود التى أشار إليها فى خطابه، لأنهم سيكونون بمأمن حتى بلوغ تلك النقطة.

لم يعر دوق سيسا ذلك الأمر اهتمامه، أما بدرو دى كاسترو -الذى أغضبه تجرؤ ذلك المسلم على الرغبة فى رسم حدود لقائده العام، فقد رد عليه -من تلقاء نفسه- بأن عليه هو أن يعلم جيداً أن كل مرة راودت الدوق فيها الرغبة فى التجول فى البشرات، كان يفعل ذلك رغماً عنه وعن كل من بها من المسلمين، وأنه سيقوم بالأمر ذاته من الآن فصاعداً؛ كما أضاف كلمات أخرى تفيد ذات المعنى. كان الحبقى قد تسلّم تلك الرسالة لتوه عندما دلف إيرنان بايى دى بالاثيوس إلى البلدة حاملاً قرار المجلس، فناداه من نافذة غرفته بينما كان برفقته كل من المالح وبدرو دى مندوثا وألونسو دى بيلاسكو، وكانوا جميعًا يستشيطون غضباً، حتى أنهم قرروا قتل المندوبين، وعدم التحدث فى تلك المسألة مرة أخرى، لأنهم أدركوا أن الأمر لا يعدو كونه خدعة.

بيد أن إيرنان بايى هدأ من روعهم، وعرض عليهم القرار الذى كان يحمله إليهم، واستخدم حججاً سديدة فى إقناعهم بعدم الالتفات إلى كلمات بدرو دى كاسترو. حيث قال لهم أن يضعوا ثقتهم فى السادة الموجودين هناك، لأنهم أقرب أصدقاء لهم، حتى أنهم هم بأنفسهم من وقع اختيارهم عليهم، نظرًا لثقتهم الكبيرة فى أنهم سيسعون لتحقيق مصلحتهم. وأن عليهم أن يدركوا أن أية اضطرابات سيثيرونها، سوف تعود عليهم بأضرار بالغة، فهم لن يرجعوا بعدها من أجل تدبر شئونهم قط، كما أنهم لن

يجدوا مكانًا للصفح عند جلالة الملك. أعطى الحبقى الرسالة إلى إيرنان لكى يعرضها على خوان دى سوتو، ووعده أنه لن يدع أيًا من الموجودين برفقته يغادر الغرفة حتى يجتمع المندوبون. كان أول من شاهد الرسالة هما السيد خوان إنريكيث وخوان دى سوتو، فبادرا بالدخول إلى مقر إقامة الحبقى، وأرسلا فى طلب رفاقهما، وظل الجميع يبذلون جهوداً مضنية معه ومع باقى القادة، إلى أن أعادوهم إلى جادة الصواب، وقد قاموا -دون مغادرة الغرفة- بوضع نهاية لتلك المباحثات على النحو التالى:

يتوجه الحبقى -بالنيابة عن ابن عبو وباقى القادة الآخرين- ليلقى بنفسه تحت قدمى السيد خوان دى أوستريا، مطالبًا إياه بالعفو عن خطاياه، وأن يسلّم إليه الأسلحة والراية. وأن يقوم سمو الأمير بقبولهم -بالنيابة عن جلالة الملك- وأن يصدر أوامره بألا يتم مضايقتهم، أو تحصيل رشاوى منهم، أو سرقتهم. كما أنه سيرسل من يقومون بتسليم أنفسهم مع نسائهم وبنيهم وأموالهم المنقولة إلى الجهات والأماكن التى يتعين عليهم العيش بها، لأنه لا ينبغى لهم البقاء فى البشرات. فى أعقاب الموافقة على تلك الأمور، وغيرها من الأشياء الاستثنائية التى طالب بها الحبقى من أجل ابن عبو وأصدقائه وشخصه، وقد أُقرت جميعًا، انطلق الحبقى فى ذلك اليوم صوب بادوليس مصطحبًا معه ألونسو دى بيلاسكو وثلاثمائة من حملة البنادق، حيث توجه للاستسلام إلى السيد خوان دى أوستريا بوصفه نائبًا عن جلالة الملك.

دلف الحبقى إلى معسكرنا يصحبه السادة المندوبون وجنوده الثلاثمائة المسلحون بالبنادق، والذين كانوا يسيرون فى صفوف يضم كل منها خمسة رجال، وقد أحاط بهم أربعة من فرق المشاة كانوا فى انتظارهم. فى أعقاب ذلك أمر السيد خوان دى أوستريا الحبقى بتسليم راية ابن عبو إلى خوان دى سوتو، فأمسكها من منتصفها وعبر بها فى المنتصف بين كتائب المقاتلين من المشاة والفرسان الذين كانوا مصطفين وهم شاهرين أسلحة المعركة، حيث قاموا بإطلاق وابل بديع من نيران البنادق دام على مدى ربع الساعة. كان السيد خوان دى أوستريا موجوداً فى خيمته، فى صحبة سائر الفرسان وقادة الجيش، وحينما دنا منه الحبقى، نزل الحبقى من على صهوة فرسه، وذهب ليلقى

بنفسه عند قدميه وهو يقول: "الرحمة يا سيدى! أفض علينا من رحمتك يا مولاى بالنيابة عن جلالة الملك، وتجاوز بعفوك عن خطايانا التى نقر بأنها كانت جسيمة" ثم نزع قطعة قماش مشغولة بالذهب كانت مطوية بصحبته، وأعطاها إلى السيد خوان فى يده، وقال له: "أسلّم إلى جلالتك هذه الأسلحة وهذه الراية بالنيابة عن ابن عبو وسائر الثوار الذين فوضونى للقيام بذلك"؛ عندئذ ألقى خوان دى سوتو علم ابن عبو تحت قدميه.

شهد السيد خوان دى أوستريا كل تلك الأحداث فى وقار شديد، وهو ما كان خير ممثل لعظمة المهمة التى يقوم بها. فأمر الحبقى أن ينهض واقفًا، وأعطاه قطعة القماش الموشاة مرة أخرى، وقال له بأن يحافظ عليها لكى يخدم بها جلالة الملك؛ ثم أنعم عليه بالكثير من الرحمات والهبات. رجع المسلمون الثلاثمائة إلى أندرش، بينما ظل الحبقى فى المعسكر. وقد اصطحبه السيد فرانثيسكو دى كوردوبا لتناول الطعام فى خيمته، وبينما هما يطعمان تباحثا فى أمورٍ تتعلق بصالح المفاوضات، وقاما بتدوينها. فى اليوم التالى دعاه أسقف وادى آش لتناول الطعام، وكان سروره غامرًا لما رآه من إبدائه للندم، وسعادته بما قدمه من أجل خدمة الرب وجلالة الملك. عاد الحبقى إلى البشرات فى اليوم الثانى والعشرين من شهر مايو لكى ينقل لابن عبو وباقى القادة ما تحقق من أمور. فى اليوم ذاته انطلق السيد خوان دى أوستريا من بادوليس، وتوجه ليعسكر فى بلدة كودبا الكائنة فى أندرش.

الفصل الثالث

يتناول الكيفية التى توجه بها السيد أنطونيو دى لونا إلى بقاع جبل رُندة لإجلاء قاطنيها.

تقع مدينة رُندة التى كان المسلمون يطلقون عليها حصن الرند Hizna Rand -وتعنى قلعة الغار- فى البقعة الكائنة فى أقصى الغرب من مملكة غرناطة. وقد شيدها العرب الوافدون فى موقع مستو بعض الشىء، وإن كانت تحوطها جبال شديدة الوعورة، عند نهاية الجبل الأكبر. إلى الغرب توجد حدود مدن جبل طارق، وشريش الفرنتيرة، وإشبيلية. بينما يحدها من الشمال البقاع السهلية فى أراضى أندلوثيا، ومن الجنوب تلك التابعة لمربلة، ومن المشرق أراضى مالقة. وقد حبتها الطبيعة بموقع حصين، حيث يحيط بالمدينة من ثلاث اتجاهات خندق عميق مكون من صخرة قائمة الانحدار، ويجرى به نهر ينبع الجزء الأكبر منه فى المنطقة الموجودة أسفل الجسر الخاص بذلك الخندق. أما باقى المياه التى تصل إلى ذلك الموضع، فيتم تجميعها من عدد من الجداول التى تسيل من الجبال، وهى تجف فى بعض أوقات من العام؛ وهكذا فإن العين الرئيسة للمياه تقع أسفل المدينة ذاتها، بحيث لا يمكن حرمانها من الماء إذا ما فرض عليها حصار. أما البقعة التى لا يحدها فيها الخندق أو النهر -وهى المنطقة الكائنة ما بين الغرب والجنوب- فتحصنها قلعة تمثل دفاعًا كافيًا لتأمين ذلك المدخل. تتسم حدود المدينة بالخصوبة، وهى مكسوة بغيلات من أشجار الزيتون والكرمات، وبها غابات فسيحة لرعى الأغنام، كما أن هناك أراضى مناسبة جدًا لزراعة الغلال.

هناك عدد كبير من المواضع الخاضعة لنطاق سلطة تلك المدينة، وهى موجودة فى الأودية الجبلية، وحيث تجرى فى أرجائها المياه العذبة والصحية التى تمدها بها العيون

والأنهار التى تنبع من تلك الجبال. يخترق الجبل الأكبر تلك الأراضى من مشرقها إلى مغربها، ويحمل فيها اسم جبل بيرميخا، على الرغم من أن المواطنين يطلقون عليه أسماءً مختلفة وفقًا للبلدان التى يقطنوها ويمر بها. أما البداية فهى عند جبل أربوتو -الذى يقع بالقرب من إيستان- لينتهى عند كاساريس وغاوسين، وهما آخر بلدتان فى أبارال أو غرب رُندة algarbe de Ronda، وهى المنطقة الموجودة غربى تلك المدينة. يطلق الأهالى على بدايات النهر النابع من خندق غواغال الكوباسين Guagal Cobacín، ويسمونه غواديارو Guadiaro بعد أن ينحدر لمسافة أكبر إلى الأسفل، وهذا هو الاسم الذى يُعرف به عندما يصب فى البحر ما بين جبل طارق وبرج دوقيسا Duquesa، حاملاً معه مياه أنهار أخرى ترافقه فى المسار. هناك نهر آخر ينبع أعلى إيغواليخا Igualeja -وهو الموضع الأكثر ارتفاعًا فى ذلك الجبل- ويجرى فى وادى أبارال، حيث يوجد العديد من المواضع على كلا جانبيه، ويسميه الأهالى فى تلك المنطقة خينال Genal.

أول المواضع الموجودة على الجهة اليمنى من السفح هى باراوتا Parauta، ويليها كارتاخيما Cartagima، وخوسكار Júscar، وفاراشام Faraxam، وبانديّرى Pandeire، وأتاخاتى Atajate، وبينادايد(بنى الوليد)، وبنى العبرية Benalabría، وبينامايا Benamaya، والغاتوثين Algatucin، وبنى الرباح Benarrabá، وغاوسين حيث ينتهى الأبارال. أما البلدان الواقعة على السفح الأيسر فهى: بوخيرّة Pujerra، وموكلون Moclón، وخوبريكى Jubrique، وبوتيّاس Botillas، وبينامِيدا Benameda، وخينا الوزير Ginalguacil، وبنى إستيبار، وكاساريس التى تقع فى أرض غاوسين. هناك برج قديم فى خوسكار له أربعة أركان، يستخدم كبرج للناقوس فى الكنيسة، وكان مسجداً فى عهد المسلمين. وإذا ما وقف أحد الرجال على الحاجز الأعلى -الموجود به الناقوس- فسيكون بمقدوره بقوته المجردة أن يحرك الناقوس بشدة مما يسمح بقرعه. نحن لم نعثر على من يخبرنا بالأمور المسببة لحركة الناقوس، لكن بعد اعتلائى له أرى أن الداعى هو دقة الصنع، وهو ما تفصح عنه الأحرف العربية المكتوبة عليه، والتى تفيد بأن من صنعه هو أمهر المهرة فى فن العمارة.

إذا ما عدنا إلى حديثنا، فسنذكر أن النهر طالما كان يجرى باتجاه الغرب إلى أن يبلغ كاساريس، ومنها يعرج إلى الجنوب؛ حيث يخلّف تلك البلدة على الجانب الأيسر، ويتوجه ليصب فى البحر ما بين جبل طارق وإستيبونا. يمر هذان النهران فى شتى الأرجاء - وعلى مسافة فرسخين أو ثلاثة فراسخ من البحر يمكن عبور نهر غواديارو بالمراكب. إن كاساريس وغاوسين هما بلدتان حصينتان نظرًا لطبيعة موقعيهما. حيث يحيط بكاساريس خندق مكون من صخور قائمة الانحدار -على شاكلة رُندة- وهو ما ينطبق أيضًا على غاوسين، على الرغم من أن صخور تلك الأخيرة ليست بالارتفاع الشاهق الذى تتسم به الأولى؛ وكانت غاوسين هى مفتاح الأبارال فى عهد المسلمين. هناك منطقة جبلية أخرى تبعد ثلاثة فراسخ من الأبارال باتجاه الشمال، ويطلق عليها بيّا لوينغا، وكانت تشكّل جزءًا من رُندة، وهى الآن تخضع لسيطرة الإقطاع وتضم سبع قرى. هذا الجبل مرتفع وشاسع، حيث يمتد على مسافة خمسة فراسخ تمثل طوله من الشمال وحتى الجنوب. إذا ما عرجنا فيما بعد على المنطقة الشرقية من رُندة، التى تدعى الشرقية، وهى تعلو بلدة تولوش -التى تعد درة مالقة- وعلى مسافة أربعة فراسخ من البحر، يوجد جبل بلانكيّا Blanquilla، وهو أعلى جبال مملكة غرناطة قاطبةً فيما خلا جبل شلير؛ وهى تضم عيون المياه التى تنبع منها الأنهار الثلاثة.

أول هذه الأنهار هو النهر الأخضر، وهو -كما أسلفنا عند لوصف مربلة- يجرى نحو تلك المنطقة. أما النهر الثانى فيطلق عليه النهر الكبير Río Grande، وهو ينبع ما بين بلدتى تولوش ويونكيرا، ثم يمر أسفل ألوثاينا وصولاً إلى كاسابالما Casapalma، حيث يتحد مساره مع النهر الذى ينحدر من ألورا، ليصب فى البحر على مسافة فرسخ إلى الغرب من مالقة وبجوار تشوريّانا. أما النهر الثالث الذى ينحدر من جبل بلانكيّا، فينبع من منطقة بورغو ، حيث يعبر إلى جوار البلدة متوجهًا إلى كل من قلعة تورون -التى كانت حصنًا مهمًا إبان حكم المسلمين لتلك الأراضى- وبلدة أرداليس. عندئذ يتحد معه أنهار أخرى موجودة بعدد من الجبال، لتهوى مياهه من ارتفاع شاهق ما بين صخرتين قائمتين الانحدار موجودتين على مسافة نصف فرسخ أسفل موضع التقائها، وذلك فى المكان الذى يدعى الجرف. وهنالك يدخل النهر من مضيق بالغ

الطول، حيث كانت توجد فى سالف الزمان بلدتان كبيرتان، ما زالت أطلالهما تُشاهد إلى يومنا هذا على مسافة نصف فرسخ من النهر، كانت إحداهما باتجاه الجنوب بينما تقع الأخرى ناحية الشمال. أما البلدة الجنوبية فيدعوها المعاصرون بيّابيردى Villaverde، كما يطلقون على الثانية عبد العزيز Abdelagiz، حيث توجد قرية صغيرة يُقال لها بعد تحريف اسمها أودالاخيث Audalajix[٢]. من هناك يتوجه النهر إلى ألورا، وعند بلوغه كاسابالما – التى توجد على بعد فرسخين نزولاً إلى الأسفل- يضم النهر مساره إلى النهر الكبير الذى أشرنا إليه آنفاً.

بعد أن عقد جلالة الملك وأعضاء مجلسه العزم على إخلاء كل مواضع الموريسكيين المسالمين، التى كانت على أعتاب الانضمام إلى الثورة فى مملكة غرناطة من قاطنيها، لكى يحمل الثوار على التخلى عما كانوا يعولونه عليهم من آمال، ويدفعهم إلى الاستسلام أو يساهم فى التعجيل بالقضاء عليهم؛ وعلى الرغم من أن السيد خوان دى أوستريا كان قد أوقف إجلاء موريسكيى وادى آش وبسطة -وذلك فى إطار مباحثات الاستسلام التى كانت تُجرى فى أندرش- نظراً لعدم ثقته فى أهالى المناطق الجبلية والأبارال فى رُندة، لوجود بعض الثائرين فى تلك الجبال؛ فقد أصدر السيد خوان أوامره إلى السيد أنطونيو دى لونا لكى يذهب لإخراجهم من هناك، مستعيناً بالمأمور القضائى لمدينة رُندة، وبدرو بيرموديث دى سانتيس -الذى يترأس المحاربين الموكل إليهم حماية المدينة-، والمأمورين القضائيين التابعين للمدن الأخرى المتاخمة، بالإضافة إلى أكبر عدد يتسنى له جمعه من الرجال. على أن يقتادهم إلى أماكن داخلية موجودة فى بقاع أندلوثيا وباتجاه حدود البرتغال، وذلك بأقل قدر ممكن من المضايقات، للحيلولة دون إتاحة الفرصة أمامهم للتصدى للمرسوم والأمر الصادر إليهم.

انطلق السيد أنطونيو دى لونا من أنتيقيرة للاضطلاع بتلك المهمة فى العشرين من شهر إبريل، حيث توجه إلى السيد بدرو بيرموديث دى سانتيس من أجل أن يخبره

(٢) كانت القرية تسمى "عبد العزيز" لكن الاسم حُرف فيما بعد، ربما لصعوبة نطقه فى الإسبانية أو لعوامل أخرى. (المراجع)

بأمر تلك الحملة. وقد ذهب فيما بعد إلى مدينة رُندة فى ألفين من المشاة وستين من الفرسان، فأكمل هنالك العدد إلى أربعة آلاف راجل ومائة فارس؛ وفى أعقاب ذلك شرع السيد أنطونيو فى تنفيذ الأمر الصادر إليه. فى الوقت ذاته قام السيد أريبالو دى ثواثو بحشد الرجال فى المناطق التى تدخل فى نطاق سلطته، وتوجه بهم لإجلاء أهالى بلدتى موندا وتولوش -اللتين تحدان المنطقة الجبلية فى رُندة من تلك الناحية. حيث لم يكن مطمئنًا إلى الموريسكيين الذين يقطنون بهما، وأيضًا بغية قطع الطريق على أهل المنخفض والشرقية إذا ما رغب أحدهم فى القيام بأمر ما. عندما تم تنبيه السيد أنطونيو دى لونا إلى أنه ينبغى -قبل أى شىء- احتلال المنطقة العليا من الجبل قبل أن يفطن الموريسكيون إلى ما سيجرى، وذلك من أجل أن تحقق الحملة الأثر المرجو، أصدر السيد أنطونيو أوامره إلى بدرو بيرموديث دى سانتيس، لكى يتوجه بصحبة خمسمائة من الجنود للتمركز فى بلدة خوبريكى، لأن موضعها ملائم لتأمين ظهور من سيكون عليهم الذهاب لإجلاء باقى مواضع الأبارال.

فى أعقاب ذلك قام السيد أنطونيو دى لونا بتوزيع الكتائب، وأصدر إليهم الأوامر لكى يقوموا -فى آن واحد، وفى غضون ساعة- بحبس الموريسكيين فى الكنائس والشروع فى إجلائهم. انطلق الرجال فى الساعة الثامنة صباحًا، حيث تراءى لهم أنه ليس من المناسب الذهاب ليلاً، نظرًا لوعورة تلك الطرق غير المألوفة بالنسبة إليهم. أما المسلمون -الذين كانوا قد التزموا جانب الحذر والريبة- فقد صعدوا إلى الجبال مصطحبين أسلحتهم حينما اكتشفوا مجىء قواتنا، وخلفّوا وراءهم المنازل والنساء والبنين والأغنام إلى الجنود لكى ينالوا منهم بمطلق الحرية. ولمّا كان هؤلاء أناسًا حديثى عهد بالجندية وينقصهم الانضباط، فقد شرعوا فى سرقة الثياب وتحميلها، وتجميع العبيد والماشية، كما جرحوا وقتلوا كل من كان يقف فى طريق جشعهم بأى شكل من الأشكال ودونما تفرقة. حينما شاهد المسلمون تلك الفوضى هبطوا من الجبل -مدفوعين بمشاعر الحنق والأسى-، ووثبوا على أولئك الذين أذهب الانغماس فى السرقة عقولهم، وألحقوا بهم الهزيمة. تزايدت وتيرة تلك الفوضى مع حلول الليل،

ولَمّا كان بعض الجنود قد تقاعسوا عن الدفاع عن أنفسهم وألويتهم، فقد ترك بدرو بيرموديث بعض الرجال فى كنيسة خينا الوزير لحراسة النساء والأطفال والشيوخ الذين تم حشدهم بها، ثم اتخذ موضعًا منيعًا خارج البلدة لكى يتحصن به.

دلف المسلمون عبر المنازل فى عزيمة ماضية، فحاصروا الكنيسة، وشنوا عليها هجومًا، فأخرجوا من كانوا بداخلها، ثم أضرموا فيها النيران وأحرقوها هى والجنود دون أن يُمكن إنقاذهم. فى أعقاب ذلك انقضوا على بدرو بيرموديث، الذى استبسل فى التصدى لهم، وفى نهاية الأمر قتلوا أربعين من الجنود، وخلّفوا الكثير من الجرحى فى كلتا الجبهتين، ثم عاود الأعداء الاحتماء بالجبل. عندما أبصر السيد أنطونيو دى لونا تلك الفوضى، والأثر الضئيل الذى أحدثته قواتنا، قام بسحب الألوية برفقة ألف وخمسمائة جندى، وكانوا قد اقتادوا أعدادًا غفيرة من الموريسكيات والغلمان والثياب والماشية، التى باعوها لاحقًا فى رُندة كما لو كانت فيئًا قد غنموه من الأعداء. فى أعقاب ذلك انفرط عقد ذلك الجيش الصغير، وذهب كل جندى فى طريقه، كما هو الحال بالنسبة لمن يحصل على مكاسب ويخشى أن ينال جزاء ما اقترف. أرسل السيد أنطونيو دى لونا الموريسكيين الذين تسنى له جمعهم إلى البقاع الداخلية، كما أذن لقوات أنتيقيرة فى العودة؛ ثم انطلق صوب إشبيلية –التى كان جلالة الملك قد أمّها فى خلال تلك الأيام– دون الاضطلاع بمهمة أخرى، وذلك من أجل أن يحيط جلالته علمًا بما كان من شأنه، وبما وقع من أحداث، لأن كلاً من أهالى رُندة وكذلك المسلمين حمّلوه مغبة ما جرى، حيث قال هؤلاء إنه كان يتعين عليه أن يبادر بالهجوم على تلك المواضع مع بزوغ الفجر، لكنه قام بشن الهجوم فى وضح النهار، كما أن الرجال قد تم تقسيمهم على العديد من المناطق؛ وكانت الأوامر لدى صدورها غير واضحة، مما أتاح للقادة والضباط حرية الحركة. بينما رأى الآخرون أنه قد خرق الأمان والعهد الملكيين –اللذين كانا بمثابة أشياء مقدسة بالنسبة إليهم– وأنه بينما كانوا هم متمسكين بالانصياع إلى الأوامر التى صدرت إليهم، قام هو بسرقة ديارهم ونسائهم وأبنائهم وماشيتهم، بحيث لم يتبق لهم سوى الأسلحة التى بين أيديهم والجبال الوعرة، لذا فقد

لجأوا إليها للحفاظ على أرواحهم. كما أنهم لا يزالون مستعدين لهجرها والعودة للدخول فى طوع جلالة الملك إذا ما أُعيد إليهم النساء والبنين والشيوخ الذين حملوا أسرى، وأيضًا الثياب التى يمكن استعادتها عن طريق جهود الوساطة.

أما الأمر الأول، فقد أجاب عليه السيد أنطونيو دى لونا بأنه قد وزع الرجال وفقًا لما تقتضيه التضاريس الوعرة وغير المألوفة؛ وأنه لو كان قد سار ليلاً، لحدث توزيع الرجال بلا تبصر، مما يقود القوات على نحو يفتقر إلى التنظيم والاصطفاف الجيد، مما كان سيتيح إلحاق الهزيمة بهم بسهولة شديدة، لأن الأعداء كانوا متنبهين إلى ما يجرى؛ كما أنه كانت لديهم دراية بالممرات، وكانت ظلمة الليل ستصب فى صالحهم. أما فيما يتعلق بالاتهام الثانى، فإنه على الرغم من أنه يبدو وكأن المسلمين لم يجانبهم الصواب فيما زعموا، فقد كان هناك العديد من المغرضين، الذين حملهم ذلك الأمر فقط على التحول إلى أعداء، وذلك على الرغم مما أظهروه من إجبارهم على القيام بالثورة وانضمامهم إليها حفاظًا على حياتهم. وهكذا تم قبول الحجج التى تقدم بها السيد أنطونيو دى لونا، وتم التغاضى عن الفوضى التى تسبب فيها الجنود. وفى واقع الأمر لم تسفر تلك الحملة سوى عن التعجيل باندلاع الثورة فى تلك الأراضى وإشهار السلاح بها.

فى تلك الآونة وصل أرّيبالو دى ثواثو إلى بلدة تولوش مع الرجال التابعين للبقاع التى تخضع لنطاق سلطته، فأصدر أوامره بحبس موريسكيى تلك البلدة فى الكنيسة على نحو يتسم ببعض الهدوء. بيد أنه لمّا أحاط البلدة بنقاط للحراسة، تراخى الجنود فى القيام بواجبهم، مما أتاح الفرصة للكثير من الموريسكيين لكى يرحلوا إلى الجبال مع نسائهم وبنيهم، حيث جمعوا ما كان بها من ماشية، وتوجهوا للانضمام إلى باقى الثوار الذين يجولون فى أرجاء وادى النهر الأخضر. فى أعقاب إجلاء تلك البلدة من قاطنيها، خلّف أرّيبالو دى ثواثو بها القائد خوان دى باخارييغو **Juan de Pajariego** مع مائة وثلاثين من الجنود ريثما يفرغ رجالنا من جمع الأموال المنقولة. حينما تم تنبيه القائد إلى أن المسلمين الذين فروا إلى الجبال لديهم ما يربو على ثلاثة آلاف من رؤوس الماشية،

والكثير من النساء والأطفال، وأنه من الممكن هزيمتهم بسهولة لأنهم أناس عزل، قام بحشد مائة وعشرين رجلاً من الحورين وألوثاينا وبقاع أخرى -ممن كانوا يجوبون الأرجاء بحثًا عما ينتفعون به- وتوجه بهم للإغارة عليهم. لمّا بلغ الرجال بوابة لاس غولوندريناس (السنونو) Golondrinas، أبصروا قطعان الماعز عند مسيل ماء المطر الكائن بجوار المرعى الذين يُطلَق عليه لا باراً Parra، وألفوا ثلاثة من المسلمين يتولون حراستها.

كان الأعداء قد وضعوا تلك الأغنام هناك كضرب من الخداع حينما شاهدوا المسيحيين يبرحون البلدة، ونصبوا كمينًا لقواتنا. فلمّا أصدر القائد أوامره بإيقاف المسيرة عند إحدى الروابى، وبعث بأربعة من الغلمان الذين يمتازون بخفة الحركة لتفقد المكان، خرج المسلمون من مخبأهم وهم يطلقون صيحات حرب مدوية، ليصعدوا فى عجالة شديدة لاحتلال الفجاج الأكثر ارتفاعًا من أجل الانقضاض عليهم. عندما أبصر نفر من المسيحيين الجبناء تلك الحادثة بادروا بالهرب، ولم تفلح تضرعات القائد أو حامل الراية أو الضباط الآخرين، أو التهديدات التى وجهوها إليهم، فى استبقائهم. قام بعض الرجال الذين استشعروا الخجل مما جرى بتشكيل سرية سيئة التنظيم، لأن الأعداء كانوا قد أضحوا على مقربة منهم، بحيث لم يتسن لهم إمكانية ضبطها. وثب المسلمون عليهم فى عزيمة ماضية، فاخترقوا صفوفهم، وقتلوا سبعة مسيحيين، وجرحوا ثلاثين آخرين، ودمروا رايتهم التى كانت من حرير التفتاه وطبولهم. وهكذا بادر الجنود بالتقهقر حتى بلغوا ربوة كورونا Corona، وهى إحدى السلاسل الجبلية المرتفعة التى تشرف على تلك الجبال قاطبةً. هنالك برز لهم جناح آخر من المسلمين، وأخذوا يضيقون عليهم الخناق، بحيث تجدد القتال وقُتل أربعة مسيحيين آخرين وجُرح عشرون.

على ضوء الإعياء الشديد ونقص الذخيرة اللذين عانى منهما رجالنا، أخذوا يلقون بأنفسهم إلى أسفل الجبل، الذى كان يتسم بالوعورة ويفتقر إلى الغيلات؛ فما كان من المسلمين -الذين كانو بالمنطقة العليا من الجبل- إلا أن ألقوا عليهم الأحجار والصخور

الضخمة التى فتوا بها فى عضدهم. كان القائد باخارييغو قد تخلف واختبأ بين بعض الشجيرات، فرجع أحد أبنائه فى استبسال بحثًا عن والده، حيث عبر وسط الأعداء، ووصل برفقة أربعة عشر من الجنود إلى الموضع الذى كان موجودًا به وأعاده معهم. ما من شك فى أن المسيحيين كانوا سيهلكون جميعًا لو لم يهب لنجدتهم القائد لويس دى بالبيديا -أحد أهالى مدينة مالقة- الذى أمّن انسحابهم مع عشرين من الفرسان، بالإضافة إلى قوات المشاة الموجودة فى تولوش؛ ثم خلّفوا وراءهم تولوش مهجورة وحملوا الجرحى إلى ألوثاينا ليتم مداواتهم. فى أعقاب مغادرة المسيحيين للمحل، بادر المسلمون بالنزول إلى البلدة، فحرقوا الكنيسة ومنازل المسيحيين الذين كانوا يعيشون بينهم.

الفصل الرابع

يتناول كيف رجع الحبقى إلى معسكر السيد خوان دى أوستريًا حاملاً القرار، والأوامر التى صدرت إلى السادة المندوبين والتى تلزمهم بتجميع المسلمين الذين يفدون إليهم لتسليم أنفسهم.

رجع الحبقى إلى معسكر السيد خوان دى أوستريا فى يوم الاحتفال بقربان المسيح، والذى كان يوافق فى ذلك العام الثالث والعشرين من شهر مايو، حاملاً القرار بشأن ما تم التفاوض معه بصدده؛ حيث أتى بالموافقة من ابن عبو، والقادة الآخرين، وزعماء الثوار، والأتراك، وعوام الناس على وجه الخصوص، الذين كانت أقصى أمانيهم هى العيش فى هدوء. نظراً لأن موكب القربان المقدس كان قد بدأ مسيرته إبان بلوغ الحبقى المحل، فقد خرج إليه السيدان إيرناندو دى بارّاداس وإيرنان بايى دى بالاثيوس لشغله ريثما تنقضى شعائر الموكب، وظلا برفقته إلى أن انتهت مراسم الاحتفال، التى اتسمت بالهيبة الشديدة. وقد سار الموكب فى طريق تحفه أشجار الحور والزروع النضرة إلى محيط الخيمة، حيث يوجد المذبح الذى سيستخدم لإقامة القداس. وقد اصطفت فرق المشاة والفرسان على جانبيه، وهم يرفعون أعلامهم ويطلقون نيران أسلحة الميدان، كما أطلقوا ثلاث دفعات من نيران المدفعية دام كل منها ربع الساعة.

تضمن الموكب كلاً من أسقف وادى آش، والرهبان والقساوسة الذين كانوا موجودين فى المعسكر، بالإضافة إلى سائر السادة، والقادة، وذوى الشأن، وهم يحملون مشاعل وشموع متقدة فى أيديهم. تولى كل من السيد خوان دى أوستريا والقائد العام لرهبانية قشتالة العسكرية الجزء الأمامى من مظلة موكب القربان المقدس، بينما قام السيد

فرانثيسكو دى كوردوبا والأب سيمون دى سالاثار -القاضى المستشار فى مجلس مملكة قشتالة- بحمل الحوامل الخلفية. وقد كان بالفعل منظراً جديراً بالمشاهدة حينما تم تنكيس الرايات والأعلام، وقام الجميع بتقديم الشكر إلى الرب ، والثناء على ما تكرم به من رفق وإنعام مطلقين على ذلك المكان، الذى شهد اقتراف الثوار المارقين للعديد من الفظائع والآثام فى حق الذات الإلهية والبشرية. ألقى العظة فى ذلك اليوم أحد رهبان سان فرانثيسكو، الذى ذرف الكثير من العبرات، وأخذ يلهج بحمد الرب للفضل الكبير والنعمة اللذين أغدقهما على الشعب المسيحى عن طريق تعريف أولئك الأناس بخطيئتهم؛ وقد تحدث حول أمور كثيرة فى هذا الصدد مما أدى إلى تعزية الرجال.

فى أعقاب انتهاء مراسم ذلك الاحتفال، دلف الحبقى إلى المعسكر، حيث تم منحه الضمانات التى أُعدت من أجل إقرار مهمته، ومرسوماً ممهوراً من السيد خوان دى أوستريا يوثق ما سبق التوصل إليه، بالإضافة إلى بعض البيانات الخاصة بالوقت. كما صدرت التكليفات إلى السادة المندوبين الذين يضطلعون بمهمة تجميع المسلمين الذين يفدون لتسليم أنفسهم، من أجل أن يبادر كل منهم بالتوجه إلى الجبهة المنوط بها. أُسند إلى السيد خوان إنريكيث بقاع بسطة، وهاوية بسطة، ونهر المنصورة، وجبل فيلابريس، وأراضى بيرا. بينما عُهد إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس بسائر بقاع البشرات، والجبل، وغوطة غرناطة، وطاعة أورخيبا، وساحل البحر، ووادى ليكرين، ونهر الحامة. تولى السيد إيرناندو دى بارّادا أراضى وادى آش، ولا بيثا، وفينيانا، وأبلا، ولاوريثينا، وغيثيخا، وديلار، وفيريّرة، وقلهرّة. أما السيد ألونسو حابس بينيغاس فقد اضطلع بالمهمة فى نواحى ألمرية ونهرها، وتولى السيد خوان بيريث دى ميسكوا تلك المهمة فى الديرة، والكيف، ونانتيرة، وشريش. كما صدرت الأوامر إلى كل من تيّو غونثاليث دى أغيلار وإيرنان بايى دى بالاثيوس من أجل أن يجمعا كل من يحضرون إلى معسكر السيد خوان دى أوستريا لتسليم أنفسهم.

لمّا كان إيرناندو الدرّة وثوار جبل منتميس يسعون أيضاً لتسليم أنفسهم، وكانوا قد بعثوا إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس برجلين موريسكيين هما

غونثالو غايتان Gonzalo Gaytán –وهو من أهالى كومبيتا– وخورخى عبود حسن Jorge Abud Hascen –وهو من أهالى كانيّاس–، فقد تم تكليف السيد أرّيبالو دى ثواثو بمهمة جلبهم، وذلك برفقة رجل من بلش يدعى ألونسو بيليث دى مندوثا. كانت الأوامر التى صدرت إلى الجميع تقتضى بترك الموريسيكيين يرحلون بإرادتهم الحرة لكى يقيموا فى الأماكن التى تبدو أكثر ملائمةً بالنسبة إليهم، على أن تكون أراض مستوية خارج نطاق الجبال، وأن تكون بعيدة قدر المستطاع عن ساحل البحر. كما تعين عليهما أن يعدًا قائمة بأسماء كافة الرجال الذين تبدأ أعمارهم من الخامسة عشر ولا تتجاوز الستين عامًا، وبيانًا باليوم الذى استسلموا فيه، وبالأسلحة التى سلّموها، وبالمكان الذى يودون الذهاب للإقامة فيه؛ وكذلك فإن عليهما السماح للأهالى ببيع أو حمل أملاكهم المنقولة، دون أن يضعا أمامهم أى معوقات.

اقترح الحبقى أن يتولى أيضًا إخضاع الأهالى الثائرين فى المناطق الجبلية فى رُندة ومربلة، وأن يخبرهم –فى غمار الروح الحماسية التى بثها رحيل أهالى البشرات– بالوجهة التى يتعين عليهم اللجوء إليها، والطرق التى يمكن أن يسلكوها فى أمان. وقد غادر الحبقى المعسكر يحمل أمرًا بتحميل الأتراك ومسلمى شمال إفريقية الذين يجوبون الأراضى على متن السفن، وإرسالهم إلى شمال إفريقيا. وهو أمر يبدو أليمًا، بيد أنه إذا ما تدبرنا مليًا، سندرك أنه كان مهمًا لوأد الأمل فى نفوس الثوار بشأن إمدادات الرجال والأسلحة التى ستقوم بإنقاذهم، كما أن هؤلاء كان باستطاعتهم إقناع الثوار بعدم الاستسلام؛ فهم رغمًا عن قلة عددهم كانت لديهم المقدرة على فعل الكثير. كان الحبقى قد ألح فى ذلك الطلب، بغية إزالة العائق الذى يمكن أن يجهض مهمته؛ كما أنه لابد وأن يكون قد دفعه لذلك الأمر كونه هو من جلبهم من الجزائر، ومن حسن الطالع أن تسنى له إقناعهم بأن يعودوا آمنين ومحملين بالغنائم قبل أن يحل الدمار الشامل.

الفصل الخامس

يتناول كيف توجه السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس لمقابلة ابن عبو.

كان يتعين على السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس الذهاب إلى أوتورا -وهى إحدى بقاع غوطة غرناطة- من أجل تجميع المسلمين الذين سيفدون من الأماكن التى أوكلت إليه لتسليم أنفسهم. وكان السيد خوان دى أوستريا قد أمره بأن يسلك طريق البشرات ويذهب لملاقاة ابن عبو، وذلك لبث الأمل فى نفسه حول صحة كل ما نقله إليه الحبقى، وأن يخبره - بالنيابة عنه- عن الأفضال التى سيسبغها السيد خوان دى أوستريا عليه باسم جلالة الملك، وكيف أنه يأسى لرؤيته مثقلاً بأمور تتنافى وطبيعته الصالحة. كما أن السيد خوان دى أوستريا بعد أن أدرك براءته وصدق نواياه، على النحو الذى أوضحه له الحبقى، سوف يدخله فى حمايته وكنفه، لكى يتسنى له التضرع إلى جلالة الملك -كما سيفعل السيد خوان- لكى يفيض عليه من نعمته وإحسانه. وهو -بمقتضى هذا الأمر- يمكنه البقاء فى داره دون أن يبرحها، فعلى الرغم من أن الأوامر قد صدرت بإجلاء باقى من فى البشرات، فإن ذلك لا ينطبق على شخصه وعلى بعض الأفراد المهمين الذين يرغب هو فى تسميتهم.

كان قد صدر أمر آخر بتوجه السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى ميثينا دى بومبارون من أجل تجميع الأسلحة التى كان بحوزة كل من يحضرون لتسليم أنفسهم، وإرسالها إلى غرناطة، لكن السيد خوان دى أوستريا أمره ألا يحدث أمراً بشأن ابن عبو، لأن الحبقى كان قد أعلن تسليمه لنفسه بتفويض منه. كانت المهمة التى كُلف بها السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس بين أولئك الأناس الهمجيين الحانقين جد خطيرة،

وقد سر كثيراً لأنه سيستطيع تجنب سـلك ذلك الطريق، لأنه كان يخشى من حدوث أى حماقة ممن اقترفوا الكثير من الفظائع ينجم عنها إفشال الأمر برمته. وحينما أخبر السيد ألونسو السيد خوان دى أوستريا بمخاوفه، أجابه الأمير المغوار بأنه لا ينبغى لنا أن نتوقف عند المخاطر، لأن الأحداث العظام لابد وأن تنطوى على أخطار شديدة.

حينما شهد السيد ألونسو بينيغاس العزيمة الماضية التى تحلى بها السيد خوان دى أوستريا ، انطلق من بلدة كودبا الكائنة بأندرش فى يوم الثامن والعشرين من مايو، فى وقت تجاوز الرابعة مساءً؛ وقد اصطحب معه الكاهن القانونى توريخوس، والضابط سيرنا، وأحد عشر أو اثنى عشر شخصًا آخر. بلغ السيد ألونسو ألكوليا مع غروب الشمس، وكان بدرو دى مندوثا الشعيبى موجوداً هناك، فخرج لاستقباله مع اثنين من الفرسان وخمسين من حملة البنادق والأقواس الفولاذية. قضى السيد ألونسو ليلته بالبلدة، ولم يشأ أن يعلن المرسوم الذى فى حوزته، لأن ذلك المكان يقع فى نطاق المنطقة المكلف بها شخص آخر، لكنه أخبر الأهالى مشافهةً بالأماكن التى يتعين عليهم الذهاب إليها لتسليم أنفسهم، وأنهم سيكونوا آمنين فى أثناء القيام بذلك، وأن عليهم أن يثقوا فى حسن الاستقبال من جانب كل السادة الذين وكلت إليهم تلك المهمة، وأن الإسراع فى تسليم أنفسهم سوف يعود عليهم بالنفع الكثير. أظهر الموريسكيون الغرباء من أهالى غرناطة وغيرها من البقاع خضوعهم التام للالتزام بالمرسوم، بيد أن أهل الأرض شعروا بالأسف الشديد لأنه كان ينبغى عليهم ترك ديارهم، وعلى الرغم من ذلك فقد أخبروا السيد ألونسو أنهم سيمتثلون لما يؤمرون به.

كان الأهالى يخشون المرور على الأماكن التى بها الثوار الجبليون فى صحبة نسائهم، وبنيهم، وثيابهم؛ لذا فقد تضرعوا إلى السيد ألونسو لكى يكتب إلى السيد خوان دى أوستريا، من أجل أن يعهد إلى أشخاص مثل بدرو دى مندوثا الشعيبى وأفراد بارزين آخرين بجلب من يريدون الاستسلام، وذلك على غرار التفويض الذى منحه للحبقى، وذلك حتى يقوموا بتأمين الطرق ومرافقتهم حتى يبلغوا مأمنهم. فقال له إنه سيفعل ذلك، ونبههم لكيلا يبرح أحدهم المعسكر دون أن يؤمر بذلك، وإنه ينبغى

عليهم -عندما يرحلون- أن يدخلوا إلى الأماكن المحددة للاستسلام نهاراً، وليس فى أثناء الليل، لتفادى أى معوقات قد تقابلهم. غادر السيد ألونسو بينيغاس ألكوليا فى صباح اليوم التالى، ووصل إلى البسيط فى أوخيخار حيث أحسن من بها استقباله، وقد أمر بإذاعة المرسوم وتعليقه على إحدى بوابات المدينة، ثم قال لمن كان فيها من المسلمين ما قاله من قبل للمسلمين الموجودين فى الكوديا، ويغادر البلدة بعدها سالكًا الطريق المباشر المفضى إلى كاديار، لأنه علم أن ابن عبو والحبقى فى انتظاره.

كان كلا الرجلين قد ارتقبا وصوله طوال يوم الأحد بالفعل، وكانا قد أرسلا إليه من يخبره بذلك الأمر؛ فلمّا لم يرجع الرسول بالجواب، رجعا إلى ميثينا دى بومبارون، وأرسلا ألونسو دى بيلاسكو مع ستة من الفرسان لكى يتقدم الطريق الذى سيسلكه السيد ألونسو ويقابله. وقد ألفاه على مسافة نصف فرسخ من تلك الجهة من أوخيخار، ورافقه إلى كاديار. كانت تلك القرية تضم العديد من أهالى كوغوبوس وبقاع غوطة وجبل غرناطة، وقد استقبلوا السيد ألونسو بينيغاس بفرحة غامرة وآووه وأحسنوا إليه كثيراً، حيث شعر الجميع بالسعادة لأنباء انتشار السلام فى تلك الأرجاء. حضر إلى كاديار فى ذات اليوم كل من ابن عبو والحبقى مع ثلاثمائة من المسلمين حملة البنادق وخمسين من الأتراك، وتوجهوا سيراً على الأقدام إلى مقر إقامة السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس. وقد انتحى المأمور القانونى توريّخوس بهم جانبًا، وكان حديث ابن عبو برمته يدور حول تبرئة نفسه من الخطأ، وأنه ليس مسؤولاً عن اندلاع الثورة، بل إنه قد قام بحماية المسيحيين الموجودين فى بلدته، كما حال دون إحراق الثوار للكنيسة، ونصحهم بألا يقدموا على تلك الفعلة الآثمة. أضاف ابن عبو أنه فى أعقاب ما جرى كان من أوائل الأشخاص الذين سلّموا أنفسهم إلى ماركيز مونديخار، كما أنه حمل الكثيرين على الاستسلام؛ وأنه قد قبل بتولى منصب قيادة المسلمين قسراً ورغمًا عن إرادته، وهو -نظراً لكونه مسيحيًا فى صميم نفسه- لم يسمح بارتكاب أعمال وحشية فى حق الأسرى المسيحيين، وقد قام بشرائهم بقدر استطاعته للحيلولة دون قتلهم.

وقد ختم ابن عبو حديثه بقوله إنه قد جاء إلى هنا لكى يفعل السيد خوان دى أوستريا به، وبأسلحته، وبكل من معه ما يتفضل به؛ وأنه رهن أوامره، وسيذهب هو

ومن بالبشرات جميعًا حيثما يؤمرون، على الرغم من أنه يرى أنه من الأفضل إرسال كل إلى بلدته التى ينتمى إليها، دون حدوث أى قلاقل قد تتسبب فى إعاقة الأمر الذى يتمنى حدوثه بشدة. كما أن إجلاء الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا على متن السفن هو الأمر الذى يوليه جل عنايته فى الوقت الراهن، لأنهم أناس حادو الطبع ومهيأون لارتكاب أى آثام، وهم لا يولون ثقتهم لأى أحد حتى أنهم يلحقون الضرر بالآخرين، وأن هذا هو الداعى وراء جلبه إياهم معه، وذلك للحيلولة دون أن ينشقّوا، فهم أقوياء ويمتلكون اليد الطولى فى الأرض مع الأشرار. وهو -منذ اليوم الذى فتح فيه جلالة الملك أبواب رحمته للخاطئين- بذل كل ما فى وسعه لكى يدرك الثوار مدى الأهمية البالغة لتسليمهم أنفسهم، على الرغم من المعارضة الشديدة التى قوبل بها فى هذا الصدد. أفلح ابن عبو من خلال تلك الكلمات وعبارات أخرى قالها فى إفهام المسيحيين أنه يرغب فى تسليم نفسه، بيد أنه لا يأمن طائلة الخطايا التى اقترفها، فهو كمن تكون السكين على رقبته ويهاب الموت.

وقد أجابه السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس بقوله إن السيد خوان دى أوستريا راض عنه بشدة، وأن عليه أن يعجل بوضع خاتمة لتلك المسألة، لأن ذلك يصب فى صالحه ليمسى هادئًا مستريح البال؛ كما أن ما يتعلق بإجلاء الموريسكيين من تلك الأراضى ومصادرة الأسلحة لا ينطبق على شخصه وعلى بعض الأفراد الذين يقوم بتسميتهم. نجحت تلك الحجج وغيرها فى جعل ابن عبو على ما يبدو أكثر اطمئنانًا، وقد وعد الحضور بأن يمتثل لكل ما يأمر به السيد خوان دى أوستريا، وهو لم يطلب من السيد ألونسو غرانادا دى بينيغاس سوى عدم السعى لجمع الأسلحة على النسق الذى أُمر به -وفقًا للتعليمات الصادرة إليه-؛ وقال ابن عبو إن الرجال الذين جلبهم معه يبتغون صالح جلالة الملك، وتحقيق المهمة التى وعدوه بتنفيذها. سر السيد ألونسو لذلك الأمر، وقال له إنه لم يعد هناك داعى لإحضار رايات أو أعلام أخرى؛ فأمر ابن عبو بنزع تلك الأعلام فى حضوره، ليرجع السيد ألونسو بعدها وفى اليوم ذاته إلى ميثينا دى بومبارون.

الفصل السادس

يتناول كيف أخطر السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس السيد خوان دى أوستريا بما دار بينه وبين ابن عبو.

مكث السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس فى كوديار لمدة يومين ليتحقق من إرادة أولئك الرجال. ورغمًا عن أنه لم يأمر بإذاعة المنشور بشكل علنى، لأن ابن عبو كان قد رجاه أن يرجئ الأمر إلى ما بعد صعود الأتراك على متن السفن، فإنه لم يكف عن بذل جهد مضنى فى سبيل إذاعة فحواه شفهيًا، وطمأنة من ذهبوا لتسليم أنفسهم. فى أعقاب ذلك قام السيد ألونسو بإخبار السيد خوان دى أوستريا -على وجه الخصوص عندما أنبأه الحبقى بأن الأتراك على وشك اعتلاء متن السفن، بمجرد إخبارهم بوجود سفن يمكنهم الذهاب بها إلى وجهتهم- أنه من الضرورى للغاية التعجيل بترحيلهم للحيلولة دون تأليبهم للأهالى؛ لأنهم كانوا ينشرون بين الناس أن المسيحيين لابد أن يكونوا يخططون لإيداعهم جميعًا فى مكان يتيح لهم نحرهم فى غضون ساعة واحدة. وهم يطلبون توفير سفن تجديف لنقلهم إلى وجهتهم، لأنهم لا يثقون فى المصير الذى قد تلقاه أنواع السفن الأخرى. كما نبه السيد ألونسو بينيغاس السيد خوان دى أوستريا أيضًا إلى ضرورة وجود شخص بارز إبان اعتلائهم للسفن، لكى يعنى بألا يحملوا معهم موريسكيات أو مسلمين من أهل الأرض، أو مسيحيين من الأسرى، أو أى شيء آخر من الأشياء الممنوعة. ولكى لا تسفر مسألة المسيحيين الأسرى لديهم فى تعطيلهم، ريثما يسعون لتهريبهم فى الخفاء على متن قوارب أو مراكب أخرى، فإنه حرى بالسيد خوان أن يأمر بإرسال بعض النقود التى تُمنح إليهم لإرضائهم، حيث أن ابن عبو

والثوار الآخرين لم يكونوا قد افتدوا أولئك الأسرى، وهم لا يمتلكون ما يتيح لهم افتدائهم؛ هذا وقد عرض الحبقى أن يقايضهم نظير مبلغ بخس للغاية.

فى أعقاب اتخاذ تلك التدابير وغيرها مما كان لازمًا من أجل أن تسير الأمور على نحو جيد، مضى السيد ألونسو دى غرانادا بينيفاس إلى غوطة غرناطة، حيث اتخذ موضعًا له فى كل من أوتورا وثوبيا، وشرع فى تجميع من يحضرون لتسليم أنفسهم، وقد كانوا كثيرين. قام السيد ألونسو بتوزيعهم على البلدان مع توافدهم عليه، كما تولى طمأنتهم، وتزويدهم بالمؤن، وقد تطلبت تلك الأمور جميعًا بذل جهود مضنية، نظرًا لانعدام النظام فى صفوف جنودنا، الذين كانوا يقطعون عليهم الطرق، ويقتلوهم، ويسرقوهم، ويسبون النساء من أجل إخفائهن، واقتيادهن فيما بعد لبيعهن فى المناطق الداخلية. لم تكن الصعوبات التى واجهها مندوبو السيد خوان فى الجبهات الأخرى تقل عما تعرضنا له، حيث قام السادة المندوبون الآخرون بقبولهم على النحو ذاته، ودون أن يتسنى لهم إصلاح تلك العيوب أو تلافيها على الرغم من أن بعض الجنود قد طُبقت عليهم عقوبات رادعة. وقد أرسل جلالة الملك من يأمر المأمورين القضائيين فى المدن وفى معسكرات المحاربين بألا يتعرض المستسلمون لأى ضير، وأن يتم استقبال من يأتون لتسليم أنفسهم بشكل جيد، وأن تتم معاقبة المعتدين.

الفصل السابع

ويتناول بعض الغارات التى شنها عدد من القادة فى تلك الآونة على من لم يتوجهوا لتسليم أنفسهم فى أنحاء متفرقة من المملكة.

صدر أمر عام إلى كافة قادة المحاربين يوجب عليهم ألا يكفوا عن تمشيط الأراضى فى البقاع التى يستشعرون وجود المقاتلين المسلمين بها، وذلك بغية حرمانهم من المؤن، وتجويعهم إلى حد يدفعهم إلى التعجيل بتسليمهم لأنفسهم. كما صدرت إليهم الأوامر فى الوقت نفسه بألا يشنوا أى غارات، لكى لا يتبعها حدوث اضطرابات أو معوقات قد تجهض ما تم الاتفاق عليه مع المسلمين، بيد أن ذلك الأمر كان يتم مداراته فى ظل الحملات التى كان القادة يشنوها على المناطق التى يوجد بها المسلمون المتمردون. فى غمار ذلك الزخم تم شن العديد من الغارات ما بين أجواء الحرب والسلام فى أماكن متفرقة من المملكة، وسوف نسوق بعضها فى هذا الفصل، لأنها كانت بمثابة المهماز التى استخدم لترويض الجانب الأكبر من الثوار، على الرغم من أنه كان يمكن أن يكون الغرض منها هو العكس تماماً.

كان رئيس محكمة تفتيش غرناطة السيد بدرو دى ديثا قد أرسل من غرناطة موكبًا كبيرًا للإمدادات إلى وادى آش، وكان يضم العديد من المتاع المحمل بالمؤن، وقد رافقه كل من بارتولومى بيريث ثوميل Bartolomé Pérez Zumel وخيرونيمو لوبيث دى ميبا. وقد سلك هذان القائدان فى أثناء عودتهما الطريق الذى يعلو بلدة لا بيثا من أجل الإغارة على بايى دى إنفييرنو (وادى الجحيم) Valdeinfierno المطلة على غيخار، حيث تنامى إلى علمهما وجود أعداد غفيرة من المسلمين مع نسائهم وبنيهم وماشيتهم؛

وقد انقضوا عليهم بغتةً، فأسروا مائة وثلاثة عشر فرداً دون أن يلقوا مقاومة، كما استولوا منهم على كميات كبيرة من رؤوس الماشية. كان جيشنا قوامه ستمائة من المشاة ومائة من الفرسان، فلم يجسر المسلمون على انتظار قدومهم والتصدى لهم، حيث فروا هاربين عبر تلك الجبال. كان لذلك الهجوم الذى شنه المسيحيون عليهم فى ذلك اليوم أثر بالغ، حيث توجه الجانب الأكبر ممن فروا لتسليم أنفسهم، لأنهم رأوا أن ملاحقة رجالنا لهم فى تلك الأرض تعنى أنهم لن ينعموا بالأمان فى موضع آخر؛ وقد اتخذ رجالنا ممن أسروا عبيداً بعد أن أيقنوا أنهم سيهبطون من موقعهم هذا باتجاه غيخار من أجل إحداث أضرار أخرى.

فى تلك الآونة توجه السيدان دييغو راميريث وألونسو دى ليبا إلى بلدة إترابو ترافقهما قوات مطريل وشلوبانية وبعض الجنود الذين حضروا على متن السفن، وكان قد تجمع بها حشد غفير من المسلمين؛ بيد أنهم لم يحققوا الأثر المرجو، لأن المسلمين علموا بقدومهم وفروا إلى الجبال. تنامى إلى علم المسيحيين أن تلك الحشود، بالإضافة إلى جموع أخرى، موجودة فى بلدة بينييوس دى ري Pinillos de Rey، التى تقع على مسافة ستة فراسخ من شلوبانية، كما تبعد خمسة فراسخ عن غرناطة. أبلغ القائدان السيد خوان دى أوستريا كيف أن تلك الجموع مستقرة فى تلك البلدة -على ضوء استسلام أهالى كل من ريستابال ومليخيش القريبتين- بالإضافة إلى ثقة الرجال فى وعورة تضاريس ذلك المكان، فأمرهما السيد خوان بأن يذهبا فى أثرهم، وأن يسعيا للقضاء عليهم دون أن يحلا بالبلدتين الخاضعتين، لكى لا يثيرا القلاقل بين الأهالى. فى أعقاب تلقى ذلك الأمر انطلق القائدان المسيحيان من شلوبانية فى إحدى الليالى مع ألفين من المشاة ومائة من الفرسان، وتوجها فى تلك الليلة إلى دراغون (فج التنين) Dragón[٣]، وهو مضيق صخرى يمتد لمسافة طويلة جداً، يخرج منه نهر مطريل ليمر على بلدة باتاورا Pataura ومنها إلى البحر.

---

(٣) كان الموريسكيون يطلقون على ذلك المكان القصوبين. انظر الجزء الأول، الكتاب الرابع، الفصل العاشر. (المترجمة)

مضى الجيش فى اليوم التالى إلى بلش بن عبد الله، حيث بلغتهم تحذيرات من قائد الحصن عن وجود قائد مسلم يدعى موشكالان Moxcalan فى تلك الأرجاء، وأنه يحدث أضراراً فادحة برفقة فرقة من المسلمين الغرباء وأهل الأرض، كما أنه اعتاد الحضور إلى منازل البلدة، والتحدث إلى الجنود، وإخبارهم برغبته فى الاستسلام[٤]. قرر القائدان -على ضوء ذلك التحذير- أن يوقفا مسيرتهما وينصبا كميناً فى ذلك اليوم عند ذلك الموضع، إلى أن يمسى الوقت متأخراً، لكى يشنا هجوماً على بينييوس مع حلول الفجر. بيد أن المسلم، الذى كان يرقب الأوضاع و شاهد القوات وهى تغادر منبع النهر، بادر بالنزول إلى المضيق الصخرى، فألفى ثلاثة من الجنود كانوا قد جاءوا من مطريل بحثًا عن قواتنا، فقتل أحدهم، وأسر الثانى، بينما فر الثالث وتوجه لدق ناقوس الإنذار لرجالنا فى بلش بن عبد الله. حينما أدرك القائدان أن الأسير لابد وأن يكون قد أفصح عن مخططهم للمسلمين، أمراً بدق الطبول، وقاما بتجميع الجنود فى عجالة وتوجها بهم صوب بينييوس معتقدين أنه من الممكن بلوغ الموضع والإغارة عليه قبل أن يتسنى لموشكالان تنبيه أهله؛ بيد أن جهدهما لم يعد بالفائدة المرجوة، لأن المسلمين كانوا قد تنبهوا إلى الأمر وشرعوا فى الرحيل.

وضع السيد دييغو راميريث سلاح الفرسان فى المنطقة العليا لكى يقطع على الفارين الطريق المفضى إلى الجبل، بينما قام المشاة بفرض حصار على البلدة من الجهات الأخرى التى تسمح تضاريسها بذلك، لأنها كانت تقع فى منطقة شديدة الوعورة، أما الجزء المنخفض منها والمطل على نهر ميليخيش، فكان به وهاد سحيقة. كانت أعداد الرجال الموجودة فى ذلك الموضع ضخمة، فعلى الرغم من تحذيرهم إلى قدوم المسيحيين، لم يتمكن الجميع من التزام جانب الحرص. أما من خرجوا متأخرين وتوجهوا صوب الجبل فقد وقعوا فى أيدى الفرسان ولقوا حتفهم، وأما الباقون فقد ألقوا بأنفسهم إلى أسفل تلك الوهاد مع نسائهم وبنيهم، وتوجهوا إلى ريستابال وميليخيش اللتين كانتا قد استسلمتا -كما ذكرنا آنفًا- وقد تحصنوا هناك لأن

(٤) لا نفهم من النص السبب فى ملاحقة القائد المسلم إذا كان قد أعرب عن رغبته فى الاستسلام. (المراجع)

السيد دييغو راميريث لم يقبل بأن يمضى الجنود قدمًا. تم أسر ثمانين من المسلمات اللواتى لم يتسن لهن الهرب وصرن إماء، أما باقى الأهالى الذين كانوا هناك فقد استسلموا فيما بعد؛ وقد عاد الجيش إلى شلوبانية فى أعقاب نهب البلدة، محملاً بالكثير من الأجولة الممتلئة بالثياب.

كان هناك مسلم آخر فى المنكب يدعى قاسم المؤذن Cacem el Mueden، وكان قد جلب -فى خضم الحرب الدائرة- ثمانمائة من المقاتلين، أغلبهم من حملة البنادق، وأحدث بهم أضرارًا فادحة فى سائر أرجاء الإقليم، وبات يصول ويجول فى الأراضى حتى بلغ أبواب المدينة. حينما أدرك ذلك المسلم أن من معه من الرجال بدأوا يهجرونه ويتوجهون لتسليم أنفسهم، احتمى بجبل مينخار Mínjar مع مائة وخمسين من المسلمين بالإضافة إلى النساء، وكان يخرج من هناك فى بعض الأحيان لشن الغارات. أُحيط السيد دييغو راميريث علمًا بذلك الأمر، فانطلق من شلوبانية فى إحدى الليالى، يرافقه مائة من الجنود الموجودين بالبلدة، وخمسون رجلاً كان السيد لويس دى بالديبيا قد أرسلهم إليه من مطريل، واثنا عشر فارسًا، حيث توجه ليعسكر قبيل بزوغ الفجر على مقربة من الطريق الذى كان يشغله المسلمون؛ وقد قام بتقسيم الرجال إلى ثلاث فرق لكى يقطع عليهم السبل التى يمكن أن يسلكوها للفرار. ثم أمر الجنود القادمين من مطريل بأن يتقدموا لاحتلال أحد المعابر التى كان يتعين على الأعداء المرور بها لبلوغ الجبال الأخرى، كما أرسل خمسين من جنود شلوبانية عبر سفح الجبل ذاته، بحيث يكونوا دائمًا فى مكان أعلى من الآخرين، ويهبطوا لنجدة رفاقهم فى الموضع الذى يتراءى لهم أنهم سيحدثون فيه فارقًا؛ بينما تمركز هو مع الخمسين جنديًا الباقين والاثنى عشر فارسًا عند مدخل الطريق ذاته، وكان هو المدخل الوحيد فى المنطقة المستوية.

مع بزوغ فجر اليوم التالى اكتشف المسلمون وجود الرجال الذين يسلكون سفح الجبل، وأدركوا أنهم مسيحيون، فدقوا ناقوس الإنذار لتنبيه المؤذن، الذى كان فى رحابه يتناول طعام الغذاء مع النساء. فحينما رأى أن الجنود قد قطعوا عليه طريق الجبل، وأن أهم شىء فى الوضع الراهن يتمثل فى اللجوء إلى الشعاب الجبلية الوعرة

بدلاً من القتال بالأسلحة، قال لرفاقه أن يتبعوه؛ ثم أخذ عصا في يده، وبدأ في الصعود إلى أعلى الجبل باتجاه المكان الذى كان يشغله جنود مطريل الخمسون، بعد أن اصطحب معه النساء. كان ذلك المسلم لديه مغارة سرية إلى جوار السبيل الذى سلكه، وكانت تقع ما بين شجيرات شديدة الكثيفة مما يجعل من المستحيل اكتشافها، وحينما أصبح بمحاذاتها جعل الرجال يمضون جميعًا إلى الأمام، بينما أودع النساء بالداخل، وقد تلكأ عند الشجيرات ثم دلف إليها على غرار النساء. توجه المسلمون الآخرون للهجوم على المكان الذى يشغله جنود مطريل، فاخترقوا صفوفهم فى تصميم بالغ، وسنحت لهم الفرصة للفرار وارتقاء الجبال الأخرى. وكان من الممكن أن يلقى المؤذن المصير ذاته، بيد أنه كان يستشعر الأمان أكثر فى داخل مغارته.

لم تسر الأمور وفقًا لتوقعات المؤذن، لأن أحد الجنود كان قد شاهده يدلف إلى الشجيرات، وأخذ يراقبه، فلمّا لم يره يخرج منها إلى مكان آخر نبه جنودًا آخرين كانوا برفقته، فدخلوا ليبحثوا عنه وتصادف أن عثروا على فتحة المغارة. دخل اثنان منهم إلى الداخل، وسارا فى أرجائها لبرهة من الوقت دون أن يعثرا على أحد، فلمّا أرادا الخروج منها، التفت أحدهما برأسه إلى الخلف، فأبصر شخصًا فى آخر المغارة. كان المؤذن قد تسلح بقوسه فى يده، وعندما أدرك أن أمره قد كُشِف أطلقه، فأصاب نصل السهم أحد الجنود فى أضلاعه، بيد أنه لم يجرحه، فقد تصادف أن ارتطم السهم بنعل من القنب كان يحمله فى حزامه. فى تلك الآونة حضر السيد دييغو راميريث، وحينما أبصر ذلك المسلم وقد اتخذ وضع الدفا ع، جعل الرجال يخبرونه باللغة العربية أن يستسلم، وأنه سيحفظ له حياته، وذلك للحيلولة دون قتله لأحد المسيحيين؛ فسلَّم نفسه فى نهاية الأمر واقتيد إلى قلعة شلوبانية. مكث الرجل هناك عدة أيام حتى أرسل فى طلبه رئيس محكمة غرناطة السيد بدرو دى ديثا وأعضاء المجلس. وقد أمر هؤلاء بتسليمه إلى المستشار القانونى لشئون الحرب لكيلا يفلت من العقاب جراء ما اقترفه من أخطاء فادحة، فأنفذ فيه حكم الإعدام.

تم أسر النساء الذين عُثِر عليهن فى المغارة، بينما فر الجانب الأكبر من المسلمين الذين كانوا بها، بعد أن ألفوا أنفسهم بدون أسلحة، حيث لم تتح الفرصة للبعض

فى حمل أسلحتهم، بينما ألقى البعض الآخر بما كان معهم من أسلحة ليتمكن من الهرب، وقد بادروا بالذهاب لتسليم أنفسهم. كان الأتراك ومسلمو شمال إفريقيا فى تلك الآونة يرغبون فى العبور إلى شمال إفريقيا، بعد أن ارتابوا فى المنحى الذى سلكته الأمور فى البشرات. وعلى الرغم من أن بعضهم كان يثق فى وعود الحبقى لهم، وكان قد عرض تقديم سفن تتيح لهم العبور آمنين إلى وجهتهم، فإن البعض الآخر لم يكن مطمئنًا إلى الإبحار فى سفن تابعة للمسيحيين، وكانوا ينتظرون وصول مراكب من شمال إفريقيا لكى يستقلونها. كان هناك عدد كبير من هؤلاء ومن الثوار فى رأس غاتا Gata الساحلية فى صحبة قائد ألمرية النيغرو (الأسود)[٥] وخمسين من الأسرى المسيحيين فى انتظار العبور إلى شمال أفريقيا، وقد توجه السيد غارثيا دى بيّاروّيل للإغارة عليهم فى مائتى جندى وخمسة وعشرين من الفرسان، بعد أن أصدر إليه السيد خوان دى أوستريا أمرًا للقيام بذلك.

لم يكن بالإمكان خروج تلك الحملة فى سرية تكفى للحيلولة دون وصول أنبائها إلى الأعداء، مما نجم عنه فرار النيغرو (الأسود) مع عدد من الأهالى المسلحين، بينما مضى الأتراك ومسلمو شمال إفريقيا وجانب من الثوار بالإضافة إلى الأسرى المسيحيين الخمسين إلى منطقة أخرى، أما غير المحاربين فقد بادروا جميعًا بالتوجه لتسليم أنفسهم. وهكذا حينما بلغ السيد غارثيا دى بيّا روّيل الموضع الذى أُبلغ بوجود المقاتلين فيه، لم يعثر سوى على ستة أشخاص كانوا قد استغرقوا فى النوم؛ بيد أنه فى أثناء الطريق ألقى القبض على اثنين من موريسكيى ألمرية، ممن كانوا قد غادروا المحل حينما تم تنبيههم إلى قدوم المسيحيين، فعرف منهم كيف أن الرجال كانوا قد تركوا المكان فى تلك الليلة. لمّا أدرك السيد غارثيا أنه لم يتسن لهم الابتعاد كثيرًا، نظرًا للآثار التى عثر عليها رجالنا، توجه للهجوم على منطقة رهبان رأس غاتا -وهى عبارة عن مجموعة من الصخور القريبة من البحر- حيث بسط سيطرته على

---

(٥) هو أندريس دى أراغون الذى ورد ذكره فى الفصل الثامن والعشرين من الكتاب الثامن. (المترجمة)

المعابر فى تلك الليلة. وفى اليوم التالى، الموافق التاسع من شهر يونيو، قام بتوزيع الجنود الذين يبلغ عددهم مائة وعشرين على أربع فرق، لكى تصعد إلى الموضع من جهات مختلفة بحثًا عن الأعداء - الذين بدوا وكأنهم لم يمضوا قدمًا- على أن يجتمع الجنود معًا عند الجزء الأكثر بروزًا مع بزوغ الشمس.

كان أول من اشتبك مع المسلمين هو القائد بدرو دى أغيلار **Pedro de Aguilar**، وذلك عندما كان الأعداء يتراجعون بعد أن شاهدوا الكتيبة التى يترأسها بيّابلانا **Villaplana** تصعد إلى أعلى الرابية باتجاه الموضع الذى كانوا يشغلونه. كان المسلمون قد خلّفوا وراءهم فى الطريق سبعة قتلى من الأسرى المسيحيين الخمسين الذين كانوا فى حوزتهم، لأنهم لم يستطيعوا السير مع تحمل الأشياء التى كانت تثقل كواهلهم. حينما اكتشف كل من الفريقين وجود الآخر، انخرطوا فى القتال بحماس. على الرغم من أن عدد الأعداء كان يربو على مائتين من الرجال المنتقين، فإن جنودنا الثلاثين قد لقنوهم درسًا مستعينين بالموقع الذى كانوا قد احتلوه -وكان منيعًا-، إلى جانب تطلعهم إلى النجدة التى سيمدهم بها رفاقهم. فى ذلك التوقيت ظهر بيّابلانا وفرقته التى كانت تتتبع آثار العدو، وحينما ظن جنود بدرو دى أغيلار أن هؤلاء وأولئك هم من المسلمين بدأت قواهم تخور، وأدار بعضهم ظهره ليلوذ بالفرار. لم يتوان بدرو دى أغيلار بوصفه جنديًا مغوارًا عن إلهاب حماس جنوده بالأقوال والأفعال، حتى جعلهم مهيئين للموت أو تحقيق الانتصار؛ وهكذا تجدد القتال، وتصدى الجنود للأعداء، إلى أن التحق بهم بيّابلانا، مما حسن من أوضاع جبهتنا.

سرعان ما بلغت الفرقتان المتبقيتان -اللتان قادهما خوليان دى بيريدا ودييغو دى أوليبينثيا **Diego de Olivencia**- أرض المعركة، وكان الأتراك ما زالوا يقاتلون باستبسال شديد، حتى أحدق بهم رجالنا وقاتلوهم بالسيوف، فتمكنوا من قتل القائد التركى وحمل الباقين على الهرب. كان هناك بعض القتلى فى أثناء المطاردة، كما تم أسر خمسة وثلاثين من الأعداء: كان من بينهم أحد أتباع الباب العالى -الذى كان ابن عبو يأتمر بأمره- وثلاثة وثلاثين مسلم من الأهالى كانوا برفقة ألونسو الخيهيثيل **Alonso el Gehecel** -أحد مواطنى تابيرناس-، بالإضافة إلى خمسين من النساء

والغلمان. أما أثمن ما ظفر به رجالنا فكان تحقيق الحرية المرجوة للمسيحيين الثلاثة وأربعين الذين كانوا يشرفون على الموت جوعًا. كان المسلمون يرغبون فى قتل الأسرى فى اليوم السابق حتى لا يضطروا إلى إطعامهم، بيد أن الأتراك لم يوافقوا على ذلك الأمر، وقالوا إن قتل الأسرى عمل ليس انسانيًا؛ وقد اتفق الجمع على أنهم سيودون بحياتهم، أو سيفعلون بهم ما يحلو لهم، لو لم تصل المراكب التى سيركبون على متنها من شمال إفريقيا فى غضون ثلاثة أيام.

كانت تلك الحملة على قدر من الأهمية، لأنها أسهمت فى حمل الأتراك الآخرين على التعجيل برحيلهم والتقليل من الشروط التى كانوا يطالبون بها. ونحن سنتغاضى عن ذكر الكثير من الحملات التى شنها القادة فى تلك الآونة، بعد أن تمادوا وتجاوزوا فى تنفيذ القرار الذى أصدره إليهم السيد خوان دى أوستريا بشأن معاقبة الثوار الرافضين للاستسلام على نحو يحول دون الإضرار بالطائعين. وقد تعلل القادة بقولهم إن المسلمين قد تذرعوا بصداقتهم لاقتراف أمور ضارة تفوق ما أقدموا عليه حينما كانوا فى معسكر الأعداء، وأنه من المستحيل معاقبة البعض دون إيذاء الآخرين، لأنهم كانوا جميعًا متلاحمين. كما أن الجنود الذين تم تفويضهم إنزال الجزاء بالمخطئين لم يكونوا يعرفون هؤلاء من أولئك، وعندما تعرفوا عليهم أو سنحت لهم الفرصة للتعرف عليهم، لم يكن هناك مبرر بالنسبة للمحاربين يحملهم على التخلى عن الثأر للأضرار التى لحقت بهم على يد الأعداء -بعد أن أضحى بمقدورهم القيام بذلك إلى الحد الذى تم فيه فصل المستسلمين عن الثوار؛ وهكذا تم التستر على العديد من الأمور التى كانت تستحق عقابًا رادعًا فى آونة أخرى.

الفصل الثامن

ويتناول ترحيل الحبقى للأتراك على متن السفن، وكيف أتى أتراك أخرون من جديد لإغاثة الثوار، وعدول ابن عبو عن رأيه.

فى تلك الآونة كانت السفن القادمة من شمال إفريقيا ترسو على ساحلنا فى كل وقت وحين، محملةً بالمؤن والأسلحة والذخائر التى سعى مسلمو أندلوثيا الذين كانوا قد عبروا إلى تطوان والجزائر من قبل لإرسالها إلى الثوار، من أجل تأخير استسلامهم، لأنهم كانوا على دراية بأن تنفيذهم للمعاهدات التى أبرمت كان نتيجة لمعاناتهم ولحاجتهم الملحة. وكذلك فقد أتى إلى الساحل كثيرون غيرهم من القراصنة الأتراك ومسلمى شمال أفريقيا لنقل الأشخاص بالأجر إلى شمال إفريقيا على متن مراكبهم. كان هؤلاء يحققون قدراً كبيراً من المكاسب، لأنهم كانوا يحصلون على نصف الأمتعة والحلى والنقود التى يحملها المسافرون. وكانوا فى بعض الأحيان يسلبونهم إياها كاملة بوصفهم أشخاصًا لا يسعون سوى للربح. على الرغم من أن السيد سانشو دى ليبا اتخذ إجراءات لحرمان الثوار من تلك الإمدادات، وكان يجوب السواحل بسفنه ليلاً ونهاراً، فإنه لم يتسن له الحيلولة دون وصول بعض المراكب إلى اليابسة، وإنزال الرجال والأشياء التى تقلها على متنها، نظراً لأن الرحلة كانت قصيرة للغاية. وقد تمكن على مدار شهر يونيو من الاستيلاء على ثلاثة عشر مركباً فى أنحاء مختلفة من الساحل.

فى ذات اليوم الذى ذهب فيه السيد غارثيا دى بيّاروّيل إلى رأس غاتا -على النحو الذى كنا قد ذكرناه فى الفصل السابق-، وصلت سفينتان إلى شاطئ كاستل دى فيروّ فى أثناء الليل، وقد صعد على متنها فى الخفاء عدد من الأتراك الذين كان

الحبقى قد جمعهم بغية إرسالهم بجوازات مرور إلى شمال إفريقيا، برفقة الأسرى المسيحيين الذين كانوا فى حوزتهم. بيد أن تلك :خبار وصلت إلى حاكم القلعة، فقام بإطلاق دانة مدفعية واحدة على سبيل الإنذار تحسبًا لوجود سفن المسيحيين فى موضع يخول لها سماع الطلقة؛ وبالفعل لم تكن السفن على مسافة كبيرة، فبادرت بالإبحار إلى تلك المنطقة، واستولت على السفينتين وهما فى عرض البحر، كما أطلقت سراح أولئك المسيحيين البانسين ، وألقت القبض على الأتراك والمسلمين.

أما الحبقى، الذى كان جل ما يرجوه هو إنهاء ذلك الأمر الذى كان قد بدأه، والذى كان يسعى لنيل الشرف والمكاسب عن طريقه، فقد بادر بالمطالبة بمنحه مراكب على وجه السرعة لتحميل من بقى فى الأرض من الأتراك على متنها، وذلك قبل أن يجىء أتراك آخرون ويألبوهم عليه. على الرغم من أن الأتراك كانوا قد طالبوه برغبتهم فى أن يوفر لهم مراكب ملكية قائلين بأنهم لا يعرفون كيفية الإبحار فى مراكب أخرى، فقد ظل يقنعهم ويلح عليهم حتى جعلهم يصعدون على متن سفن صغيرة ويرحلون إلى شمال إفريقيا، بعد أن حملهم على التخلى عن الأسرى المسيحيين الذين كانوا بحوزتهم. لمّا كان الأتراك قد اعتلوا متن السفن، وباتوا على وشك الإقلاع، وصلت إلى الساحل ذاته خمسة قوارب محملة بالرجال، والمؤن، والذخائر. على الرغم من أن قواتنا قد استولت عليها، فإنها ظفرت بها بعد أن كانت قد أنزلت مائتين من الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا إلى الشاطئ؛ فتوجه هؤلاء إلى الجبال بحثًا عن ابن عبو، والتحقوا به، ونقلوا إليه أنباء حول انتظار من بالجزائر لوصول السفن من المشرق فى تلك الآونة من أجل القدوم لإغاثته.

كان ابن عبو رجلاً متقلب الأهواء، بيد أنه كان معتدلاً فى فكره يمتلك قدرًا من الإدراك. فكانت لديه الرغبة فى تسليم نفسه والاحتفاظ بالمكانة والمكاسب، لكن تراءى له أن الحبقى يسعى بدوره لتحقيق ذلك الأمر لنفسه ولأقربائه، وأنه لم يعد هو من يمتلك زمام الأمر على النحو الذى أراده؛ فبات يحقد عليه، حتى أنه روادته الشكوك فى عدم صحة ما ينقله إليه؛ لكنه كان حائرًا بين أمرين ، فلم يكن يجرؤ على ترك العنان له، ولم يكن يدرى كيف يقبض عليه، خشية أن يقتله المسيحيون لدى تسليمه لنفسه.

باتت الشكوك والأحقاد تتنامى فى داخل ابن عبو مع مرور الوقت، وعلى الرغم من أنه لم يقم علانيةً بمنع من يرغبون فى الاستسلام، فإنه قرّب إليه الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا ومثيرى القلاقل فى البلاد، كما قام بتعطيل الباقين عن طريق إخبارهم بأن المسيحيين يسيئون معاملة المستسلمين، وأنهم لا يلتزمون بما تم الاتفاق عليه فى فوندون فى أندرش؛ وأن الحبقى لم يعن بتحقيق الصالح العام، بل اكتفى بالرضوح لما أراد السيد خوان دى أوستريا أن يمنحه إياه، حيث لم يسع سوى لتحقيق صالحه ومنفعته هو وأقربائه.

وفقًا لما قصه علينا لاحقًا أشخاص ممن أسرٍّ إليهم ابن عبو بمكنون قلبه، فإن ما كان يصبو إليه -بعد أن رأى الحبقى وقد تقلد زمام مسألة الاستسلام- هو أن يسلبها من بين يديه ويتولى هو شئونها، وذلك بغية الإمعان فى تأمين مركزه نظرًا لتقديمه تلك الخدمة الجليلة. بيد أن العامة أدركوا جميعًا أنه قد ندم على ما بدر منه بعد أن وصلت إليه الإمدادات الجديدة من شمال إفريقيا، كما أنه بات يأسى لتخليه عن عقيدته وعن لقب الملك الزائف الذى كان سيحوزه طيلة حياته. أما الأمر الأول فقد دللت عليه الخطابات التى كتبها فيما بعد إلى بعض الخاصة الذين كانت تربطه بهم علاقات صداقة، والتى رجاهم فيها أن يتوسطوا بالنيابة عنه لدى السيد خوان دى أوستريا من أجل دخول اتفاق السلام المنشود إلى حيز التطبيق؛ أما الأمر الثانى فقد برهنت عليه رسائل أخرى كتبها إلى أشخاص فى شمال إفريقيا. ونحن سنعرض هذه وتلك فى كتابنا هذا لكى ننال رضاء من سيقومون بقراءته[٦]. وهكذا فإن الحبقى حينما ظن أن المسألة قد حسمت بعد طرد الأتراك -الذين كان يتخذ منهم أصدقاءً له- من الأراضى، ازدادت الأوضاع سوءًا، وخاصة بعد تنامى الرغبة فى تدبير ميتة مخزية له على النحو الذى سنسوقه لاحقًا.

(٦) مرة أخرى يريد مارمول أن يكون كتابه شاملاً يعرض وجهات نظر مختلفة. (المراجع)

الفصل التاسع

ويتناول رغبة الحبقي في إلقاء القبض على ابن عبو بعد أن فطن إلى أنه قد عدل عن رأيه، وكيف أمر ابن عبو باعتقاله، وقتله إياه.

في أعقاب اعتلاء الأتراك متن السفن، توجه الحبقي إلى السيد خوان دي أوستريا لكي يحيطه علمًا بما قام به. على الرغم من إدراك الحبقي لعدول ابن عبو عن رأيه، فإنه كان يثق في نفسه إلى حد بعيد، ولم يكن يعتد به، حتى أنه لم يعد يكترث لأمره. وقد عرض الحبقي على المجلس أن يحمل ابن عبو على الوفاء بما تعهد به، وإلا فإنه سيحضره إلى المعسكر موثوق الأيدي؛ ولم يطلب سوى تزويده بخمسمائة من الجنود المسيحيين المسلحين بالبنادق، لكي يتوجه برفقتهم، وفي صحبة أصدقائه وأقاربه من المسلمين لشن هجوم عليه. لم يشأ السيد خوان دي أوستريا إجابته إلى مطلبه وإمداده بالرجال، لأنه رأى أنه ليس من الجيد المغامرة بالمسيحيين؛ فأمر بمنحه ثمانمائة عملة ليستخدمها في تجنيد أربعمائة من المسلمين يمكن الوثوق في ولائهم من أجل الاضطلاع بتلك المهمة. انطلق الحبقي مسرورًا من أندرش ليرجع إلى بيرتشول -التي كان يوجد بها امرأته وبناته-، لكي يخرجهن من هناك ويحملهن إلى مدينة وادي آش قبل أن يشرع في تجنيد المقاتلين.

كان الحبقي رجلاً ماكرًا، لكنه كان شديد الاعتداد بنفسه. ولمّا ألفى نفسه مقربًا للغاية من السيد خوان دي أوستريا -الذي كان بالفعل يسبغ عليه الكثير من الأفضال-، ظن أن أحدًا لن يجرؤ على التعرض له بسوء. حينما بلغ الحبقي بلدة بيخن في اليوم التالي لمغادرته أندرش، شاهد الكثير من المسلمين واقفين في الساحة، فدنا منهم

وسألهم فى تعال ما الذى ينتظرونه؟ ولماذا لم يذهبوا لتسليم أنفسهم فى الجهات المبينة لهم كما يفعل الآخرون؟ فلمّا أجابه أحدهم بأنهم ينتظرون أن يصدر لهم ابن عبو الأمر بذلك، رد عليه بأن الاستسلام يسرى على الجميع، وأنه إذا لم يقم ابن عبو بتسليم نفسه طواعيةً، فإنه سيقتاده للقيام بذلك موثوقًا إلى مؤخرة فرسه. وصلت تلك الكلمات إلى مسامع ابن عبو فى اليوم ذاته، ليتزايد معها حنقــه، فأرسل يأمر بإلقاء القبض على المائة وخمسين تركى الذين كانوا يرافقونه، وعلى كتيبتى المسلمين اللتين كانتا تتوليان حمايته.

استطلع الرسل مكانه بعد أن علموا بوجوده فى بلدة بيرتشول، وأحاطوا ببيته فى أثناء الليل، بينما هو غافل تمامًا عما يجرى، حيث لم يكن يجول بخاطره أن هناك فى البشرات من يجرؤ على التعرض له. حينما شعر الحبقى بالضجة التى أحدثها الرجال، سنحت له الفرصة للخروج إلى الجدول الكائن بالبلدة دون أن يحسوا به، وكان سيفلت هاربًا من الخطر لو لم تشى به ثيابه. فبينما هو عند أحد المنخفضات فى صباح اليوم التالى، لمح من يبحثون عنه القفطان القرمزى الذى كان يرتديه، والعمامة البيضاء التى كان يعتمرها. وعلى الرغم من أنه كان على مسافة بعيدة للغاية منهم، فقد تتبعوه عبر تلك الصخور، وألقوا القبض عليه إلى جوار عدد من الطواحين، ثم استاقوه إلى ثوخوريو Cujurio حيث كان يوجد ابن عبو. قام ذلك الأخير فيما بعد باستجوابه، فلمّا سأله الحبقى عن الداعى وراء اعتقاله إياه وهو لم يسئ إليه قط، قال له إنه قبض عليه بوصفه خائنًا، وأنه كان يعمد إلى أن يكذب عليه، كما أنه سعى لتحقيق المنفعة والشرف لنفسه ولأقربائه فحسب.

حدثت تلك الواقعة فى يوم الخميس. وقد أمر ابن عبو فى يوم الجمعة التالى بشنقه سرًا، ثم إلقاء جثته فى مكان تجميع القمامة بعد أن غلفها بالقضبان المضفورة من الأوراق وعيدان القصب؛ وقد مكث على مدار ثلاثين يومًا دون أن يعلم أحد بوفاته. ومن أجل التستر على الوفاة، بادر ابن عبو بإرسال من يخبر امرأته وبناته بأن يرحلن إلى وادى آش، وألا يحزنّ لأنه أسير لديه، وسرعان ما سيطلق سراحه. فى أعقاب

وفاة الحبقى، بعث ابن عبو بأخيه إيرناندو الغالب Hernando el Galipe إلى جبال بلش ورُندة لعرقلة استسلام أهلها، وتشجيع من لم يكونوا قد قاموا بالثورة على التمرد. ومن أجل أن يبالغ فى إخفاء الأمر، كتب رسالةً إلى السيد إيرناندو دى بارّاداس باللغة العربية. وفيما يلى نصها بعد ترجمتها إلى اللغة الرومانثية:

رسالة من ابن عبو إلى السيد إيرناندو دى بارّاداس

"أبدأ حديثى بحمد الله وحده. إن الفوز والنجاة لمن يكرم من يستحق التكريم. يا سيدى وصديقى الذى أكن له وافر الاحترام السيد إيرناندو دى بارّاداس، أحيط علم شخصكم الموقر إلى أنكم إذا ما رغبتم فى القدوم لمقابلتى، فلتأتوا إلى أخيكم وصديقكم فى أمان تام، وإذا ما مسكم سوء، فسوف أفتديكم بنفسى ومالى. وإذا ما أردتم التباحث فى شأن معاهدات السلام المباركة تلك، فلتبحثوها معى، وأنا سأنفذ كل ما ترغبون فيه بصدق ودونما خيانة. يبدو لى أن الحبقى لم يكن يخطرنى بأى من الأمور التى كان يقوم بها، بل إنه كان يخفى عنى الحقائق، لأنه كان يسعى لأن يحقق كل ما طالب به لنفسه ولأقربائه وأصدقائه. وأنا أعلم شخصكم الموقر بذلك، حتى تتمكنوا بمقتضاه من التصرف كيفما يحلو لكم، وعلى النحو الذى ترون أنه سيعود بالنفع على المسيحيين وعلينا. أدام الله المعروف بيننا، وجعلكم الله سبباً فى تحقيقه. واعذرونى لعدم قيامى بالكتابة إليكم قبل الآن لأننى لم يكن لدى من يقوم بذلك. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. كُتِبَ فى يوم الثلاثاء".

بادر السيد إيرناندو دى بارّاداس بالرد على تلك الرسالة بقوله إنه يسعده كثيراً أن يلتقى معه من أجل أن تدخل مفاوضات الاستسلام حيز التطبيق، وأن يتكرم بإخباره بمكان الحبقى وبما كان من شأنه. عاود ابن عبو كتابة رسالة أخرى باللغة الإسبانية إلى السيد إيرناندو، وكان فحواها على النسق التالى:

رسالة أخرى من ابن عبو إلى السيد إيرناندو دى باراداس

"سيدى المبجل. لقد تسلمت ما تفضلتم بإرساله إلىّ، وفيما يتعلق بالتساؤلات التى وردت فى خطابكم حول سجن الحبقى، وإذا ما كان هناك سبب وراءه، فأنا أخبركم بأن الدوافع التى دعتنى لإلقاء القبض عليه هى تلك التى سأذكرها الآن. أما السبب الأول فهو قيامه بخداع سيادتكم وخداعى، لأن الأشياء التى كنت أقولها أنا له لم يكن ينقلها إلى هناك عند ذهابه؛ كما أنه لم يكن يحيطنى علمًا بالأمور التى كان يقوم بها، أو بالأشياء التى كان يتم التباحث حولها. ولمّا كنت قد منحته خاتمى، فقد دفع ذلك سيادتكم إلى الظن بأننى على دراية وأنى أقر ما يفعله، بيد أنى أدركت أنه كان يخدع هذا الجانب وذاك؛ كما أننى اكتشفت أيضًا أنه كان قد أعد مركبًا لكى يرحل على متنها مع أبنائه إلى بلاد المغرب. من أجل هذه الأسباب وغيرها فقد أودعته سجينًا لدى إلى أن تصبح معاهدات السلام تلك قيد التنفيذ. وأنا -من جانبى- أرجو سيادتكم أن تعمدوا إلى إنهاء هذه المسألة وإطفاء تلك النار من أجل القضاء على ذلك الشر العظيم. وسوف أطلق سراح الحبقى فى أعقاب ذلك، ولتعلموا سيادتكم أنه لم يلم به أى سوء، وأنه لو كان موجوداً بالقرب منى فى الوقت الراهن لكان كتب إليكم بخط يده. ولتقوموا سيادتكم بتعزية أولاده، ولتخبروهم بأنه على ما يرام، وبأننى أتعهد إليهم -انطلاقًا من مكانتى- بألا أسىء معاملته، وأن أحتجزه فقط لعدة أيام. وأرجو من سيادتكم أن تنهوا ما كنتم قد بدأتموه، لأن الأمور جميعًا ستسير على النحو الذى تأمرون به".

حينما رأى ابن عبو، بعد مرور فترة قصيرة على إرسال ذلك الخطاب، أن السيد إيرناندو دى باراداس قد تأخر فى الحضور لمقابلته، قام بكتابة رسالة أخرى إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس كان نصها كالتالى:

رسالة ابن عبو إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس

"سيدى: تعلمون أنه فى غضون هذه الأيام القلائل حدثت فى جبهتنا أمور تتعلق بسير مباحثات السلام، وقد تمثلت فى تشكك أهالى البشرات فى سوء نية إيرناندو الحبقى، حيث اعتقدوا أنه خدعهم. وعندما ذهب الحبقى إليهم لإبلاغهم بما جاء فى المرسوم الذى نص على مغادرتهم للأراضى فى غضون ستة أيام، شعروا بالأسى الشديد لتلك المسألة حتى أنهم حسبوا أنه قد خانهم، ليقوموا فى أعقاب ذلك بإلقاء القبض عليه؛ وأنا أظن أن أمرًا سيئًا قد وقع، ونسأل الله السلامة. أنا أرغب بشدة فى وجود سيادتكم على مقربة من دائرة الأحداث، فربما يكون هناك سبيل إلى معالجتها؛ ونحن ندرك أن سيادتكم -بعد الله- لديكم القدرة على إصلاح الكثير من الأمور فى هذا الصدد. ولمّا كنتم قد بذلتم جهودًا عديدة فى ذلك الشأن، فقد بات لزامًا اتخاذ إجراء للانتهاء من هذا العمل المبارك، على أن يحدث ذلك على وجه السرعة من أجل تحقيق صالح جلالة الملك. وإذا ما تصادف عدم تمكنكم من الحضور إلى هنا، فلتكتبوا إلى السيد خوان دى أوستريا لترون إذا ما كان سيحدث أمر فى هذا الشأن. وإذا ما قررتم المجىء إلى أورخيبا أو إلى المعسكر، وتراءى لكم أن يرافقكم الكاهن القانونى توريّخوس أو بدرو دى أمبويرو **Pedro de Ampuero**، فلتفعلوا، ومن الممكن أن ينجم عن ذلك خير كبير. وإذا ما ارتبتم فى أمر ما، فسوف أبعث إليكم بكل ما يلزم من رجال لضمان سلامتكم".

إلى هنا تنتهى رسالة ابن عبو، التى أرسلها فيما بعد السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى السيد خوان دى أوستريا، الذى كان لا يزال فى مقر إقامته فى أندرش فى انتظار ما ستسفر عنه مفاوضات الاستسلام؛ على الرغم من أنه كان ينتابه قلق شديد بعد أن رأى أن المسلمين لم يعودوا يحضرون لتسليم أنفسهم. ونظرًا لأن رسائل السيد إيرناندو دى باراداس، والمعلومات التى وردت من أطراف أخرى، لم تكن قد تمكنت من توضيح سر اختفاء الحبقى بصورة كاملة، وإذا ما كان حيًا أم ميتًا، تقرر فى المجلس أن يقوم السيد إيرناندو دى باراداس يبعث الأمل فى نفس ابن عبو،

ويسعى إلى مقابلته على النحو الذى طالبه به فى رسالته. وعندما لم تتحقق تلك المقابلة، صدر قرار بذهاب إيرناندو بايى دى بالاثيوس بدلاً منه، وأن يستعلم من ابن عبو عما يريد، وأن يفهم ما الذى حل بالحبقى. كما أن عليه أن يسعى للتجسس فى حرص بالغ على الحالة التى بلغتها شئون المسلمين، وعلى المخطط الذى يرمى ابن عبو إلى تنفيذه، وأعداد الرجال المسلحين الموجودين فى حوزته - سواء من الأهالى أو من الغرباء-، وما هى الجبهة التى تضم قوتهم الضاربة، وسائر الأمور الأخرى التى تبدو له ضرورية.

من أجل الاضطلاع بتلك المهمة تم منح إيرناندو بايى دى بالاثيوس التعليمات حول ما يتعين عليه بحثه مع ابن عبو، كما أعطوه رسالة من السيد إيرناندو دى بارّاداس يرد فيها على آخر رسالة بعثها إليه ابن عبو، حيث أحاله فيها إلى إيرنان بايى دى بالاثيوس، وأخبره أن بمقدوره بحث شئونه معه على النحو الذى كان سيقوم به مع شخصه هو. ومن أجل أن ندرك بشكل أفضل مدى الازدواجية التى اتسم بها ابن عبو فى إدارة أموره، بالإضافة إلى تكتمه للأمور وطبيعته الآثمة، فسوف نستعرض فى الفصل التالى الخطاب الذى أرسله فى نفس التوقيت إلى بعض من أصدقائه من القادة الأتراك الموجودين فى الجزائر. وسوف نتناول فيما بعد ما قام به إيرنان بايى دى بالاثيوس فى أثناء رحلته.

الفصل العاشر

ويتناول قيام ابن عبو بالكتابة إلى بعض القادة الأتراك في الجزائر، وإخباره إياهم بوفاة الحبقي.

فى تلك الآونة تمكنت سفننا من القبض على أحد مراكب مسلمى أندلوثيا الذى كان متوجهًا إلى شمال إفريقيا، وقد عُثِرَ بها -من بين أشياء أخرى- على رسالة مكتوبة باللغة العربية. وقد بدا من فحواها أنها موجهة من ابن عبو إلى نفر من أصدقائه من الزعماء الأتراك الذين كانوا موجودين فى الجزائر، وسوف نستعرضها فى هذا الفصل، بعد ترجمتها إلى اللغة الإسبانية، بغية إمتاع القارئ:

"الحمد لله الواحد الأحد. من عبد الله الملك إلى القادة: باثكيث أغا Bázquea Aga، وكون كوتشارى Con Coxari، والباثكيث بستان Albázquez Bsten، وأغا باشا Aga Baxa، وإلى كافة القادة الأتراك الآخرين من أصدقائنا وحلفائنا. نحن نعلمكم أننا بخير -والحمد لله- وأنه لا ينقصنا سوى حضوركم لكى تكتمل سعادتنا. لابد أن تعلموا أن نبيل والقائد كاراكاش قد دمروا لنا المملكة بأسرها، فقد أتوا إلينا لإخبارنا بأنهم يودون الذهاب إلى أراضيهم؛ وعلى الرغم من أننا لم نرغب فى السماح لهم بالذهاب، فى انتظار أن يصلنا العون من الله ومنكم، فإنهم سعوا إلى الرحيل، وقد رحلوا بالفعل. من يزعمون هنا أننى قد أذنت للأندلسيين فى عقد معاهدات سلام وفى تسليم أنفسهم إلى المسيحيين، فهم كاذبون ولا يؤمنون بالله. لأن حقيقة ما حدث هى أن الحبقى وموسى كاتشى Muza Cache وآخرين غيرهم ذهبوا إلى المسيحيين، واتفقوا معهم على أن يسلّموا إليهم الأراضى؛ وقد قام هؤلاء فى أعقاب ذلك بالاتفاق مع كاراكاش

ونبيل وعلى الرئيس ومحمد الرئيس. ثم قام هؤلاء وأولئك بتسليمهم ستين من الأسرى المسيحيين الذين كانوا بحوزتهم من أجل أن يزودوهم بسفن لكى يعبروا على متنها بسلام إلى بلاد المغرب.

فى أعقاب عقد ذلك الاتفاق، حضر الحبقى إلى المسلمين الأندلسيين، وقال لهم إن عليهم أن يسلموا أنفسهم جميعًا إلى المسيحيين، والرحيل إلى قشتالة. أما أنا فقد كنت أحسبه يسعى إلى تحقيق صالح المسلمين، بيد أننى اكتشفت لاحقًا أنه كان يبيع الجميع، وقد دعانى هذا السبب إلى إلقاء القبض عليه وشنقه. أما ما حدث هنا عقب رحيل كاراكاش ورفاقه، فهو قيام المسيحيين بشن هجمات علينا، حيث دار بيننا وبينهم معركة ضارية، وقتلنا منهم الكثيرين، بحيث لم يعد لديهم جيش قائم يستطيعون به محاربتنا؛ لكننا نخشى أن يقوم ملكهم بتجميع جيش آخر وإرساله إلينا. وهكذا فنحن نرجوكم أن تبادروا وتجيرونا على وجه السرعة -أجاركم الله-، ولتعاونونا -أعانكم الله.

وأستحلفكم بالله أن تخطرونا بما لديكم من أنباء حول الأسطول القادم من بلاد المشرق. وإذا لم تتوفر على سواحلكم سفن بصورة عاجلة، فلتستأجروها قدر استطاعتكم، لكى ننقل على متنها النساء والأبناء، لأننا نود أن نبقى لنحارب أعداءنا حتى الموت. ولتعلموا أنكم لو لم تغيثونا، فإننا سنقتص منكم فى ساحة العدل الإلهى يوم القيامة. إن برفقتى على Alí وبالكيث Válquez مع مائة وخمسين من الأتراك والعديد من النساء والضعفاء. فلترأفوا بحالهم، فليس هناك من يتعين عليه أن يهب لنجدتنا فى تلك الدنيا أكثر منكم، لأنكم كان لكم يد فى تلك المسألة. كُتِبَت هذه الرسالة بتاريخ الخامس عشر من شهر صفر لعام ٩٨٧ من الهجرة -الذى يوافق فى تقويمنا السابع عشر من شهر يونيو لعام ١٥٧٠ من ميلاد المسيح. وفى النهاية جاء فى التوقيع: محمد بن عبو.

الفصل الحادى عشر

ويتناول كيفية قتل أهالى ألورا للغالب -شقيق ابن عبو- الذى كان قد ذهب لحشد ثوار جبل رُندة.

كان ابن عبو قد بعث فى تلك الأيام بأخيه الغالب من أجل تأليب المسلمين الذين لم يكونوا قد ثاروا بعد، والحيلولة دون تسليم الثوار لأنفسهم، عن طريق إفهامهم بأنه ينتظر قدوم النجدة من شمال إفريقيا، ومجىء أسطول الباب العالى للوقوف إلى جانبهم. كان ذلك المسلم أحد أعضاء وفد أندرش الذى كان قد ذهب لبحث قضية الاستسلام، وحينما بدا له أن السادة المسيحيين أولوا الحبقى اهتماماً يفوق ما أظهروه تجاهه، تولى عنهم وهو فى شدة الغضب، وسعى إلى عرقلة كل ما يجرى. ومن أجل أن يتحقق له ذلك، انطلق إلى منطقة رُندة الجبلية مع مائتين من حملة البنادق، ووصل إلى جبل منتميس فى أثناء وجود أرّيبالو دى ثواثو -المأمور القضائى لمالقة- فى مدينة بلش، حيث كان يسعى لحمل أهالى تلك الأراضى على الخضوع والدخول فى خدمة جلالة الملك.

حينما تنامى إلى علمه أن أحد الموريسكيين المنتمين إلى بلدة قمارش، وكان يدعى بارتولومى مونيوث Bartolomé Muñoz، يعمل على حث المواطنين على الاستسلام، وأنه موجود هناك، أمر بإلقاء القبض عليه. وحينما أراد إعدامه، بادر أصدقاؤه بالذهاب إليه، وقالوا له ألا يسمح بأن يتعرض ذلك الرجل لأى ضرر أو أن يمسه أذى، لأنه أتى بكلمة منه لتحقيق صالح المسلمين، ومن أجل افتداء نسائهم وبنيهم -الذين تم أسرهم- ومبادلتهم ببعض الغلمان المسيحيين الذين كانوا فى حوزتهم. وقد ألحوا عليه بشدة

فى الطلب إلى أن أمر بإطلاق سراحه، وبأن يتوجه فى أعقاب ذلك إلى الجبل؛ ثم أمر أن يُذَاع بين الناس ألا يسلم أحد منهم نفسه وإلا تعرض للموت. لم يتخاذل بارتولومى مونيوث فى التوجه إلى مدينة بلش، وقام بتنبيه أرّيبالو دى ثواثو إلى قدوم ذلك المسلم، وإلى أنه قد جلب معه مائتين من حملة البنادق -من بينهم بعض المنتمين إلى شمال إفريقيا- وأنه لابد له من المرور إلى رُندة. عندئذ أرسل أرّيبالو دى ثواثو إلى مدينة مالقة، وإلى البلدان التى تخضع لنطاق سلطته، من أجل أن يبعثوا بقوات لكى تقطع عليه المعابر التى ظن أنه سيتعين عليه المرور بها للذهاب إلى رُندة؛ وقد عهد بتلك المأمورية خصيصاً إلى المالقى إيرناندو دوارتى دى بارّينتوس.

بعد أن ذاع الخبر فى الأرض بأسرها، انطلق الغالب ورجاله من منتميس، وقد خرج معه بعض أهالى الجبل الذين أرادوا مرافقته، وكان معهم دليل لكى يرشدهم عبر الطرق والشعاب الجبلية الكائنة أعلى منخفض مالقة، والتى ظن الغالب أنه سيعبر منها فى أمان. توفى الدليل فى الطريق، وحينما بلغ المسلمون المحل الذى توجد به بلدة ألموخية Almoxia، أسروا مسيحياً كان يتفقد بعض المصايد، فلمّا سألوه إذا ما كان يستطيع توصيلهم إلى جبل بيرميخا، رد بالإيجاب، لأنه كان له دراية واسعة بطرق ومسالك تلك الجبال. عندما طلب منه الغالب أن يرشدهم إلى قرية صغيرة أهلها من المسيحيين، كان هناك من أخبره بوجودها على مقربة من ذلك المكان. اقتادهم الدليل إلى ألورا، وساقهم عبر مزارع الكرم حتى يصل بهم إلى النهر. سمع المسلم دقات ناقوس، فلمّا بدا له أنها لا تتناسب مع بلدة صغيرة، سأل الصياد عن عدد سكانها، فأجابه الرجل أنهم يبلغون تسعين شخصاً. لم يثق الغالب فى الرجل، فأرسل رجلين -أحدهما من بلنسية والآخر من كالابرا Calabra- لتقصى الأمر؛ وصل الرجلان إلى ألورا، ولمّا كان أهلها قد تلقوا تحذيراً سابقًا، فقد بعثت نقاط الحراسة بإشارة على أنهما ليسا من أهل البلد، فخرجوا لاعتقالهما، وقد عرفوا منهما كيف أن المسلمين موجودون عند الجدول الذى يطلق عليه مورال Moral.

فى أعقاب ذلك قام الرجال بدق ناقوس الخطر، ولمّا كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل فقد خرج ثلاثمائة من الجنود مقسمين إلى ثلاث فرق للبحث عنهم. حينما رأى الغالب من جهة أخرى أن الرجلين قد تأخرا، وأن دقات الناقوس ما زالت تدوى، أدرك أن الصياد قد خدعه، وأمر بقتله، ثم عاد ليسلك الطريق الذى أتى منه. كان إيرناندو دوارتى دى باريّنتوس قد تمركز مع قواته عند أحد الشعاب الجبلية المحددة التى كان يعتقد أن المسلمين لابد لهم من المرور بها. حينما وصل الرجال الذين كانوا قد تقدموا الطريق لتحسس الأخبار، وكان الظلام حينئذ حالكًا، ظنت دوريات الحراسة أنهم جموع المسلمين التى حضرت دفعةً واحدةً. خرج الجنود لملاقاتهم، فألفوهم مذعورين للغاية، ولمّا أتيحت لهم الفرصة للخروج من ذلك الفج وسلك فج آخر، وقعوا فى أيدى أهالى ألورا؛ وحينما وجدوا أنفسهم محاصرين من قبل المسيحيين خارت قواهم، حيث مات بعض من تصدوا لرجالنا، بينما لاذ الباقون بالفرار.

قام أحد أهالى ألورا ويدعى ألونسو غابيلان **Alonso Gavilán** بإلقاء القبض على الغالب، الذى كان قد اختبأ بين بعض الشجيرات، واتخذه أسيرًا حتى قتله ميلتشور لوبيث **Melchor López** قائد قوات البلدة، الذى لم يردعه ما قاله من كونه ملكًا(٧)، حيث قال إنه لا يعرف سوى ملك واحد هو جلالة الملك فيليبى، وأنه لا يعبأ بالمسلمين. لم يبق على قيد الحياة ممن ذهبوا مع الغالب جميعًا سوى عشرين شخصًا، كان اثنا عشر منهم قد أسروا فى ذلك اليوم، وقد تم بيعهم فيما بعد، وأُقيمت بالنقود التى قبضها رجالنا صومعة، وهى ما زالت قائمة إلى يومنا هذا تخليدًا لذكرى ذلك الانتصار، الذى يتم الاحتفال به على نطاق واسع فى تلك البلدة.

حدث فى تلك الليلة أن وصل بعض أهالى ألوثاينا، الذين كانوا فى طريقهم إلى مدينة أنتيقيرة، إلى نهر كاثارابونيلا عند المعبر التى يطلق عليه ممر سالتييو **Saltillo**، فقام بعض المسلمين الذين كانوا فى انتظار قدوم الغالب بأسرهم وقتلهم، حتى لم يفلت

---

(٧) لم يكن "الغالب" ملكًا، ولم نفهم لماذا يدعى ذلك. (المراجع)

منهم سوى ثلاثة أفراد. حينما توجّه أحدهم لدق ناقوس الإنذار فى ألورا، أرسل أهلها اثنين من حملة الدروع إلى ألوثاينا، لكى تخرج قواتها وتقطع عليهم الطريق عبر الشعاب الجبلية التى كانوا يسلكونها. خرج اثنا عشر من الفرسان وخمسون من المشاة، وتوجهوا إلى بلدة تولوش، بيد أنهم عثروا عند تلك الروابى على العديد من فرق المسلمين التى كانت قد هبطت من الجبال لاستقبال الغالب؛ فرفعوا رايةً بيضاء كرمز للسلام، وسألوهم إذا ما كانوا يرغبون فى إطلاق سراح المسيحيين الذين أُسروا فى كاثاربونيلا، إلا أن هؤلاء أجابوهم بإطلاق نيران بنادقهم؛ فشرع المسيحيون فى التراجع عبر الطريق الموصلة من تولوش إلى كوين والمسلمون يطاردونهم.

استطاع جندى مغوار من حملة الدروع يدعى مارتين دى إيرينثيا **Martín de Erencia** التصدى لهم. حيث أنه رجع على عقبيه ليواجه الأعداء، وبات يحث أصدقاؤه بشدة على القتال، حتى تمكن رجالنا -الذين بلغ عددهم ما يقرب من ستين شخصاً- من إلحاق الهزيمة بالمسلمين الذين كانوا يزيدون على ثلاثمائة رجل؛ فقتلوا منهم الكثيرين، وكان من بينهم أحد المسلمين الأشرار الذى ينتمى إلى بلدة يونكيرا يدعى ليون **León**. كان ذلك المسلم، بعد أن تلقى طعنة رمح من واحد من حملة الدروع اسمه خوان دى مويا **Juan de Moya**، قد طعنه بالرمح وجرح فرسه بحربة كانت فى حوزته؛ وكان سيرديه قتيلاً لولا أن وافته المنية. كان من بين الأشياء التى غنمها الجنود فى ذلك اليوم حصاناً يمتطيه كان أحد الأولياء المسلمين قد جلبه للترحيب بملكه الجديد ومباركته، حيث كانت الثقة التى يودعها أولئك الهمجيين الجبليين فى الغالب عارمة، وكانوا يظنون أنهم سيحققون أموراً عظيمة فى أثناء وجوده معه.

الفصل الثانى عشر

ويتناول الهجوم الذى شنه مسلمو جبل رُندة على بلدة ألوثاينا، ونهبهم لها.

لم يكن المسلمون الثائرون فى بقاع رُندة الجبلية يتسمون بالهدوء فى تلك الآونة، حيث احتشدوا فى جبل بيرميخا ، ثم خرجوا للسطو على الأراضى. فقاموا بتأليب البقاع الحدودية، واستولوا من أهلها على الماشية والأغنام، ولم يعد المسيحيون قادرين على الخروج لحصد محاصيلهم أو جنى الغلال دون أن يتعرضوا لخطر محقق؛ لأن من كانوا قد تجمعوا تحت إمرة القادة: ألفور Alfor ولورينثو الفقيه Lorenzo Alfaquí والجبيلّى Jubeli بانتظار مجىء شقيق ابن عبو المدعو الغالب، كان عددهم يربو على ثلاثة آلاف، وكانوا يتوقعون إلحاق المزيد من الأضرار بالمسيحيين فى وجوده. جمع الجبيلّى ولورينثو الفقيه ستمائة من المقاتلين فى بلدة تولوش، وفى ثالث أيام شهر يونيو اتفقوا على أن يشنوا هجومًا على ألوثاينا، وهى بلدة صغيرة يبلغ تعدادها حوالى ثمانين شخص. تقع البلدة على مسافة فرسخ من تولوش، وجميع سكانها من المسيحيين، وهم أناس موسرة من رعى الأغنام وزراعة القمح. غادرت القوات بلدة تولوش للإغارة على ألوثاينا، وقد سلكت طريق يونكيرا من أجل الإمعان فى التخفى والمجىء عن طريق جبل خورول Jurol.

كان يسير فى طليعة القوات اثنا عشر مسلمًا على مسافات متباعدة لاستطلاع الطريق، وقد قسموا أنفسهم إلى مجموعات تتكون كل منها من أربعة أفراد. وصل المقاتلون إلى جدول لاس بينياس (الكروم)، وظلوا مختبئين هناك حتى حلول يوم الأربعاء الموافق السابع من شهر يونيو، وذلك عند موضع أشجار الزيتون التى تقع على

مسافة تساوى مدى إطلاق ثلاثة أمثال السهم من البلدة. كانت القوات تستطيع من موقعها كشف الأراضى بأكملها ومشاهدة من يخرجون ويدخلون، وحينما رأوا أن الأهالى يذهبون لحصد محاصيل الغلال وأنهم غافلون تماماً عن وجودهم فى أراضيهم، نزلوا من مكانهم فى الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء، بعد أن نظموا صفوفهم على هيئة فرق، كل منها يتكون من ثمانية أفراد فى الصف الواحد، وقد سار إلى جوارهم ستة من الفرسان على كلا الجانبين، حتى أنهم بدوا وكأنهم مسيحيين قادمين من بورغو لشن حملة ما، وهو ما عمل على طمأنة أبراج المراقبة التى كان الأهالى قد أودعوها فى أعلى الشعاب. كان من الممكن أن يحدثوا أضراراً تفوق بكثير ما تسببوا فيه لو لم يكونوا قد أوقفوا مسيرتهم من أجل قتل اثنين من المسيحيين كانوا يقومون بالحصاد على مقربة من منازل البلدة. كان أولهما يدعى لويس ديل كامبو Luis del Campo، وقد أردوه قتيلاً بطلقة من نيران بنادقهم، مما تسبب فى إثارة الهرج بين الأهالى؛ أما المواطن الثانى المدعو فرانثيسكو إيرنانديث Francisco Hernández فقد لاذ بالفرار، وقد طارده أحد الفرسان المسلمين، فاستدار وواجهه، واستولى منه على الرمح. وبينما هما يتصارعان لانتزاعه من بين يديه، أتى مسلم آخر اسمه داكا دينيرو Daca Dinero، فأنهكه، وقام المسلمان معًا بقتل امرأته، التى كانت قد حضرت فى ذلك الصباح لكى تجلب للمسيحيين طعام الغذاء فى أثناء قيامهما بالحصاد.

حينما أدرك الأهالى فى أعقاب ذلك أن من يغيرون على البلدة هم من المسلمين، شرعوا فى إشهار الأسلحة ودق ناقوس الإنذار. كان هناك عشرة من حملة الدروع موجودين كحامية فى ذلك المحل، بيد أن ثمانيةً منهم كانوا قد توجهوا برفقة قائدهم إلى كوين، فلبى الاثنان الباقيان -اللذان كانا فى الحقول مع فرسيهما- النداء؛ حيث هرع أحدهما لدق ناقوس الإنذار فى ألورا، بينما دلف الآخر -المدعو خينيس مارتين Ginés Martén- إلى البلدة، فاخترق صفوف المسلمين المرة تلو الأخرى ليمضى قدمًا فى استبسال. ولو كان حملة الدروع العشرة موجودين فى المعقل، بدلاً من وجوده بمفرده، لأحدثوا أثرًا بالغًا؛ بيد أنه بذل جهداً خارقًا فى اقتياد الأهالى صوب القلعة. ألوثاينا بلدة مفتوحة، وبها قلعة قديمة ضعيفة التحصين توجد بها الكنيسة وعدد من المنازل،

وقد احتشد هناك النساء والأطفال فى أجواء من الاضطراب، بعد أن اقتادهم إليها السيد المالقى إنييغو مانريكى Íñigo Manrique، الذى تصادف وجوده هناك فى ذلك اليوم.

كان حامل الإجازة خوليان فيرنانديث Julián Fernández -الكاهن القانونى لكاثارابونيلا- موجوداً أيضاً فى البلدة، حيث كان يتولى المنصب ذاته فى ألوثاينا خلال ذلك العام. فما كان منه إلا أن بادر بالتوجه إلى كنيسته لكى يتناول القربان المقدس فى حال دخول المسلمين إلى البلدة، لأنه لم يكن بها سوى سبعة من الرجال. بيد أن النساء -اللواتى استلهمن الحماسة من ذلك الفارس ومن الكاهن القانونى- عوضن غياب الرجال فى حمية شديدة، وحللن محل الرجال البواسل فى الدفاع عن الأسوار الضعيفة، بعد أن اعتمرن قبعات وأغطية للرأس، وقمن بتغطية أثوابهن التى تعلوها المعاطف لكى يعتقد الأعداء أنهن رجال؛ بينما صعدت أخريات إلى برج الناقوس، ولم يتوقفن عن قرع ناقوس الإنذار. قسّم المسلمون أنفسهم إلى ثلاثة أقسام لكى يشنوا الهجوم فى أن واحد: حيث توجه الجبيّلى مع اثنين من الألوية صوب بوابة القلعة، بينما ذهب لورينثو الفقيه مع لوائين آخرين إلى ساحة بورغو، أما القسم الثالث فقد حاصر البلدة برفقة سلاح الفرسان لقطع الطريق على من يغادرونها أو يدلفون إليها. وقد شنوا ثلاث هجمات على أسوار المدينة، فقدوا خلالها سبعة عشر مسلماً تم قتلهم، وجُرِحَ ما يربو على السبعين.

وقد تبادر إلى ذهنى أن أسوق فى هذا الموضع مدى الشجاعة التى تحلت بها فتاة شابة تدعى ماريا دى ساغريدو María de Sagredo لأضرب بها مثالاً جيداً. فهى حينما شاهدت وقوع والدها مارتين دومينغيث Martín Domínguez على أثر عيار نارى أطلقه عليه أحد المسلمين، دنت منه، وأخذت منه معطفاً صغيراً كان يرتديه، ثم اعتمرت خوذةً، وتسلقت السور حاملةً قوساً فولاذياً إلى جانب جعبة النشاب. وقد أخذت تقاتل مثل أى فتى مغوار، ودافعت عن إحدى الثغرات الموجودة فى السور؛ كما قتلت واحداً من المسلمين وجرحت الكثيرين بسهام قوسها. وقد بذلت جهوداً مضنيةً فى ذلك اليوم، حتى أنها استحقت أن ينعم عليها أعضاء المجلس الملكى ببعض الأملاك الخاصة

بالموريسكيين فى تولوش بمناسبة زواجها. كانت مشاعر القلق التى انتابت النساء فى ذلك اليوم عارمةً. وفى أثناء توجه إحدى النساء إلى القلعة وهى تحمل طفلاً بين ذراعيها، طاردها أحد الفرسان المسلمين ليأسرها، فدخلت إلى أحد البيوت، وخبأت الطفل فى كومة من الروث كانت موجودة بالمكان. وعندما تم إطلاق سهم من القلعة على المسلم اخترق فخذه، واضطر على أثره إلى التراجع، تسنى للمرأة الرجوع لاسترداد ابنها وإنقاذ حياته.

كانت امرأة أخرى لديها طفلة عمرها ثلاثة أشهر فى مهدها، وقد قامت -من فرط اضطرابها- بحمل كومة من القماش بين ذراعيها ظنًا منها أنها ابنتها، وبادرت بالهرب إلى القلعة. حينما دخل أحد المسلمين إلى المنزل عثر على الطفلة فى مهدها، فحملها من قدميها ليضرب بها الحائط، فقام مسلم آخر -كان صديقًا لوالد الطفلة- بانتزاعها من بين يديه، ووضعها على الأرض. وعندما رجعت المرأة إلى المنزل فى طلب ابنتها فى أعقاب رحيل المسلمين، وجدتها على قيد الحياة. عندما شاهد الأعداء المقاومة الشديدة التى أظهرتها البلدة، وأنهم لن يتسنى لهم تحقيق الأثر المنشود، قرروا أن يتراجعوا؛ لأن الرجال كانوا قد بادروا بالعودة من الحقول، وأخذت النساء فى إلقاء الحبال إليهم عند المواضع الأكثر انخفاضًا من السور. تراجع المسلمون فى أعقاب إحراق ما يربو على ثلاثين منزلاً فى الأرباض، وسرقة وتدمير ما كان بداخلها؛ كما حملوا معهم أربعة فتيات أسيرات، وامرأة عجوزًا قاموا بقتلها لاحقًا لأنها كانت تفهم أحاديثهم باللغة العربية[٨]؛ وقد استولوا أيضًا على ما يزيد على ثلاثة آلاف من رؤوس الماشية التى كان الأهالى بالكاد قد حشدوها ليقتادوا جانبًا منها إلى السوق فى أنتيقيرة. عقب عودة المسلمين إلى تولوش، قاموا بتوزيع الغنائم فيما بينهم، ثم ذهب كل منهم إلى وجهته، حيث توجه لورينثو الفقيه إلى جبل غايمون Gaimón، بينما ذهب دييغو الجبيلى إلى جبل رُندة.

---

(٨) هذه الإشارة العابرة تدل على مدى انتشار اللغة العربية حتى بين المسيحيين. (المراجع)

وصلت النجدة من البلدان الأخرى فى ذات اليوم، وإن كانت قد تأخرت ولم تتمكن من إحراز أى أثر، فقد أتى من كاثارابونيلا الكاهن القانونى خوان أنطونيو دى ليغيثامو Juan Antonio de Leguizamo مع أربعين من الرجال قام بإرسالهم السيد كريستوبال دى كوردوبا[٩]. كما جاء من الحورين السيد لويس مانريكى Luis Manrique مع العديد من الفرسان؛ وقد أعقبه بربع الساعة قدوم قوات من ألارا Alara، وتبعتها قوات كوين. بعد أن اجتمع كل هؤلاء الرجال، وفى أعقاب معرفتهم بالطريق الذى سلكه المسلمون، قرروا الخروج للحاق بهم؛ بيد أنهم لم يتمكنوا من الاتفاق على رأى واحد، حيث ظهر بينهم العديد من الآراء. وصل أرّيبالو دى ثواثو فى التاسعة من صباح اليوم التالى مع قوات مالقة، ثم عاد بعد أن أودع بالمدينة عدداً من الجنود على غرار الحامية.

(٩) هو قائد حصن كاثارابونيلا. راجع الجزء الأول، الكتاب الرابع، الفصل السادس والثلاثين. (المترجمة)

الفصل الثالث عشر

ويتناول توجه إيرنان بايى دى بالاثيوس لمقابلة ابن عبو بدلاً من السيد إيرناندو دى بارّاداس، وما تم الاتفاق عليه معه.

فى أعقاب صدور التعليمات والأوامر إلى إيرنان بايى دى بالاثيوس بشأن ما يتعين عليه القيام به، انطلق من معسكر أندرش فى الثلاثين من شهر يوليو، وقد اصطحب معه المواطن الغرناطى مندوثا الخايار Mendoza el Jayar، الذى كان قد عمل كأمين سر للحبقى، بالإضافة إلى موريسكيين آخرين ممن كانوا قد حضروا بالفعل لتسليم أنفسهم. توجه إيرنان بايى فى ذات الليلة إلى بلدة سوبرون Soprón، وقضى ليلته تلك فى منزل قائد يدعى موهاهابا Mohahaba، وأرسل من هناك أحد المسلمين إلى ابن عبو ليخبره بأنه قد قدم -من قبل السيد إيرناندو دى بارّاداس- لكى يتباحث معه بشأن الاستسلام، ويطلب منه أن يمنحه الأمان. حضر إلى سوبرون فى اليوم التالى مسلم يدعى الرقيمىّ Roquemí مع أربعين من الجنود المسلحين بالبنادق، من أجل أن يرافقه ليبلغه بلدة الموسطة Almauzata، حيث كانت هناك أوامر وإذن له بالمضى قدماً، حتى وصل إلى بالور العليا وقضى بها تلك الليلة. كان يوجد فى ذلك المحل رجل مسلم -من أبناء عمومة ابن أمية- يدعى فرانثيسكو دى كوردوبا، وكان من الأعداء البارزين لابن عبو نظرًا لقتله لابن عمه، وأيضًا لوجود أمور أخرى بينهما. على الرغم من أن ذلك الرجل لم يتعامل من قبل مع إيرنان بايى دى بالاثيوس، فإنه بدا له رجلاً راجح العقل، فوضع ثقته فيه، وأطلعه على أسراره؛ كما زوده بمعلومات كاملة حول كل ما أراد معرفته عن المسلمين.

فيما يتعلق بالأمر الأول، فقد أخبره على وجه اليقين بأن الحبقى قد مات، كما أنه أوضح له المقصد الخبيث الذى يرمى إليه ابن عبو من قضية الاستسلام، وكيف أنه استبقى خمسة آلاف من المقاتلين جيدى التسليح رهن إشارته فى البشرات. فهو على الرغم من إعلانه أنه لم يتبق لديه أسلحة، فقد أخفى ما يزيد على اثنتى عشرة بندقية وقوس فولاذى، وقام بتسليم الأسلحة البالية. كما أخبره أيضًا بأن هؤلاء المسلمين جميعًا موجودون على بعد سبعة فراسخ، وأنهم قد أودعوا ثمانمائة رجل كحامية فى بيتريس، على أن يبادروا بالحضور وتلبية الإشارات الدخانية التى اتفقوا على إرسالها فى حال وقوع أى حدث. وأنهم بعد أن قاموا بحصد محاصيل الذرة والحبوب فى بقاع السهل، بالإضافة إلى بعض ما تبقى بحوزتهم من أجولة الدقيق والشعير، فقد أصبحوا يمتلكون مؤونة تكفى لما يزيد على ثلاثة أشهر؛ كما أن الأتراك يقومون بتصنيع البارود ولديهم ما يلزم لفعل ذلك. علاوةً على ذلك فهم واثقون فى قدوم قوات لإغاثتهم، حيث لم يمض ستة أيام على مجىء سبعة من الأتراك من الجزائر، وتأكيدهم على أن جانبًا من الأسطول التركى قادم من المشرق لتدعيم صفهم. وإذا ما كان ابن عبو قد تكتم خبر مقتل الحبقى، فإنه كان يخشى أن يحضر السيد خوان دى أوستريا لاحقًا للبحث عنه، كما أنه كان يرغب فى المماطلة وكسب الوقت حتى يرى ما ستسفر عنه مباحثات الاستسلام.

أدت تلك الحجج وغيرها من التنبيهات التى قدمها الرجل المسلم إلى إيرنان بايى إلى اقتناعه التام بإخباره إياه بالحقيقة، فاقترح عليه إيرنان أن يتوسط لدى السيد خوان دى أوستريا بشأنه من أجل أن يشمله برحمته. انطلق الرجلان معًا فى صباح اليوم التالى من ذلك المحل، وتوجها إلى بالور، حيث أرسل ابن عبو من يخبرهما بوجوده هناك؛ وحينما أضحى إيرنان بايى على مقربة من المكان، ألفى رجلين كانا فى طريقهما لإخباره بأن يذهب إلى ميثينا دى بومبارون، فواصل مسيرته، وعندما اقترب من البلدة، خرج إليه خمسمائة من حملة البنادق المسلمين على هيئة القتال، وهم يطلقون نيران بنادقهم؛ بيد أن ابن عبو بادر بإصدار الأوامر إليهم لكى يدعوا ذلك المسيحى يمر حتى يرى الرسالة التى يحملها، فهو لم يكن يهدف من وراء القيام بذلك العرض

سوى إلى بيان أنه لا يزال يتمتع بالنفوذ. فى أعقاب ذلك انصرف الأتراك، الذين كان بينهم بعض المسلمين فى تمام زينتهم، وكان تعدادهم جميعًا يبلغ حوالى ثلاثمائة من الرماة المنتظمين فى صفوف، ثم احتلوا مداخل كل الشوارع المحيطة بها. حينما وصل إيرنان بايى، وترجل عن فرسه لكى يدلف إلى المأوى الذى يوجد به القائد المسلم، استولوا على أسلحته، وفتشوه ليروا إذا ما كان يخفى سلاحًا.

استقبل ابن عبو إيرنان بايى فى صلف وسلطان دون أن ينهض من على الأريكة التى كان جالسًا عليها، وقد أحاطت به بعض النساء اللواتى كن ينشدن له الأغانى. ظل ابن عبو على تلك الهيئة فى أثناء استماعه إلى الحجج التى ساقها إيرنان بايى دى بالاثيوس، وما ذكره من عروض عديدة تقدم بها السيد خوان دى أوستريا، وذلك بغية إقناعه بتسليم نفسه والدخول فى خدمة جلالة الملك، وألا يكون سببًا فى جلب الدمار الشامل على الأمة الموريسكية، دون أن يمنحه الجواب. فيما بعد أمر ابن عبو بحشد الأتراك والمسلمين من ذوى المشورة، وردّ كتابةً على الرسالة التى بعث بها إليه السيد إيرناندو دى بارّاداس وحملها إيرنان بايى دى بالاثيوس. ثم أخبر إيرنان بايى مشافهةً أن الله والعالم أجمع يعرف أنه لم يكن يسعى ليصبح ملكًا، وأن الأتراك والمسلمين اختاروه وودوا أن يشغل ذلك المنصب، كما أنه لم يحل دون استسلام الأخرين أو يمنع أحدًا من القيام بذلك، بيد أنه يتعين على السيد خوان دى أوستريا أن يدرك أنه لابد وأن يكون أخر من يسلّم نفسه. وأنه عندما لا يتبق أحد سواه فى البشرات، ولن يكون بحوزته سوى القميص الذى يرتديه، فإن محياه ومماته على الإسلام سيكون بالنسبة إليه أثمن من كل العطايا التى يمكن أن يغدقها عليه الملك فيليبى؛ كما أنه من المؤكد أنه لن يمسى تحت قبضته فى أى وقت أو على أية شاكلة، وحينما تدعوه الحاجة إلى ذلك، فإنه سيختبئ فى أحد الكهوف التى زودها بماء ومؤن تكفيه على مدار ست سنوات، لن يتخلف خلالها عن اللحاق بأحد المراكب التى يعبر فيها إلى بلاد المغرب.

ودّع إيرنان بايى دى بالاثيوس ابن عبو بعد الاستماع إلى جوابه. وقد أوضح إليه السيد فرانثيسكو دى كوردوبا أنه يوجد ستة من المسيحيين الأسرى بين المسلمين الذين كانوا يرافقونه لتأمينه إلى أن يبلغ ميناء ريخون Rejón الكائن أعلى بلدة شريش.

في تلك الآونة كان يتم إنشاء نقطة حصينة في بلدة كودبا الكائنة في أندرش، وذلك بغية تزويدها بحامية مكونة من عدد كاف من جنود المشاة والفرسان لشن هجمات على سائر تلك الأراضى، لأن جلالة الملك كان قد بعث بأوامر تفيد بتكوين جيشين من جديد من أجل معاودة اقتحام البشرات من جهتين مختلفتين. كان القائد العام لقوات قشتالة على رأس أحدهما في جبهة غرناطة، بينما تولى كل من السيد خوان دى أوستريا ودوق سيسا قيادة الجيش الآخر الموجود في وادى آش. وقد توجه كلاهما للالتقاء عند منتصف البشرات، وقاما في الطريق بقطع الأشجار وحرق محاصيل القمح والذرة التابعة للمسلمين المحاربين، بعد أن رأوا التراجع الذى شهدته مسألة مجيء الأهالى للاستسلام. في أعقاب تجهيز المعقل للقتال، وإمداده بكل الأمور اللازمة، أُودع بداخله اثنتى عشرة فرقة من فرق المشاة وأحد ألوية الفرسان تحت إمرة السيد لوبى دى فيغيروا . عندئذ انطلق السيد خوان دى أوستريا من ذلك المعسكر في ثانى أيام شهر أغسطس، وقصد مدينة وادى آش -مروراً بميناء غيثيخا- من أجل إعادة التزود بالمحاربين، لأنه لم يكن قد تبقى في الجيش سوى أعداد قليلة منهم.

عقب مرور ثلاثة أيام على تلك التحركات، حضر إيرنان بايى دى بالاثيوس بالخبر اليقين حول طبيعة الأحوال في البشرات، وما تراءى له من القرار الذى اتخذه ابن عبو. وهكذا تم اتخاذ القرار بمحاربته، من أجل معاقبته على ما اقترفه من آثام. تم إرسال المكاتبات إلى المجلس في غرناطة لكى يبادر بالتعجيل في اتخاذ الإجراءات اللازمة لحشد الرجال الذين سينضمون إلى جيش القائد العام لقوات قشتالة، كما تم اتخاذ الإجراءات ذاتها في وادى آش، ليشرع رجالنا من جديد في تكوين جيش من المناطق ذات الكثافة السكانية العالية في أندلوثيا ومملكة غرناطة.

الفصل الرابع عشر

يتناول كيف عاود ابن عبو الكتابة ليقول إنه يرغب فى الاستسلام، ومعرفة الغرض الذى دعاه للقيام بذلك، وصدور الأوامر باقتحام البشرات.

فى أعقاب رحيل إيرنان بايى من ميثينا دى بومبارون، علم ابن عبو والمسلمون الآخرون من أصحاب المشورة أن جلالة الملك قد أمر بأن يتولى السيد خوان دى أوستريا حشد جيش آخر لمحاربتهم؛ ورغبةً منهم فى تأخير وتعطيل تلك الحملة، لجأوا إلى التحايل على المسيحيين وإيهامهم برغبتهم فى تسليم أنفسهم، فاتفقوا على كتابة رسالة إلى خوان بيريث دى ميسكوا، يعهد ابن عبو إليه من خلالها -فى إلحاح شديد- أن يسعى للتوسط فى مسألة إرساء السلام، ويقول له إنه يرغب فى تسليم نفسه عبر وساطته، وأن يتوجه لملاقاته فى بلدة لانتيرا حيث يوجد، وأنه سيتمكن من بلوغها فى أمان تام. فيما بعد كُتبت هذه الرسالة، وقام ابن عبو بإرسالها إلى وادى آش مع ستة من المسلمين البارزين الذين كانوا قد ظلوا برفقته، كما أمدهم بتفويض منه ومن غيره من كبار رجالات المسلمين ليضفى عليهم قدراً أكبر من المصداقية. قام الرسل بتسليم الرسالة إلى خوان بيريث دى ميسكوا، الذى حملها بدوره إلى السيد خوان دى أوستريا؛ وقد أثارت حيرةً شديدة حينما تمت قراءتها فى المجلس، نظراً للتباين الشاسع بين ما جاء فيها وما كان قد أشار إليه إيرنان بايى دى بالاثيوس. فصدرت الأوامر باستدعائه لمعرفة إذا ما كان من الممكن أن يعدل ابن عبو عن رأيه، فقال لأعضاء المجلس إنه لم يشهد لدى ابن عبو عزماً على تنفيذ أى مما ورد فى الرسالة.

فى أثناء تباحث ذلك الأمر، أتى مسلم آخر برسالة من السيد فرانثيسكو دى كوردوبا -وهو ابن عم ابن أمية الذى كنا قد تحدثنا عنه سلفًا[١٠]- إلى إيرنان بايى دى بالاثيوس، وقد أعلمه من خلالها بما اتفق عليه المسلمون، وطالبه بأن يبادر بتنبيه السيد خوان دى أوستريا إلى ذلك الأمر، لأن جل ما كان يرمى ابن عبو إلى تحقيقه هو تعطيل المسيحيين إلى حين الانتهاء من إجلاء النساء فحسب، حيث أن ابن عبو لم يحد عما شهده وخبره عنه. ومن أجل أن يضفى المزيد من المصداقية على أقواله طالب بمقارنة الرسائل ببعضها، وعندها سيتكشف لهم أن كلتيهما كتبتا بخط يده، لأن ابن عبو كان قد كتب إليه لإخباره بما دار فى هذا الصدد. وهكذا تم التحقق من صدق ما قاله السيد فرانثيسكو دى كوردوبا، وأدرك أعضاء المجلس أن كافة المحادثات التى قام بها ابن عبو فى تلك الأيام كانت زائفة، وأن مسعاه هو أن يموت مسلمًا على النحو الذى وُلِد وعاش عليه؛ ورأوا أن ما ينبغى القيام به هو الاهتمام بإنهاء تلك المسألة وإنزال العقاب الرادع بالثوار المتمسكين بموقفهم، لأنهم لا يرغبون فى التمتع بالنعمة والفضل اللذين أسبغهما عليهم جلالة الملك؛ على ألا نغلق الباب أمام أولئك الذين يأتون لتسليم أنفسهم، وأن نمد المهلة الممنوحة لتطبيق ما جاء فى المرسوم، حيث أدرك أعضاء المجلس أن الكثيرين لم يقدموا على الاستسلام إما لجهلهم بالأمر أو لخوفهم من قلة الأمان فى الطرق التى سيقطعونها.

كان النسق الذى سوف يتبع فى تلك الحملة الأخيرة التى سيتم شنها على البشرات هو التالى: يقوم القائد العام لقوات قشتالة بتجنيد رجال مدينة غرناطة -الذين كانوا قد نالوا راحةً منذ عدة أيام خلت-، وأن يقوم برفقة هؤلاء، وبالإضافة إلى من سيتم حشدهم من المدن المتاخمة، باقتحام البشرات من جهة أورخيبا. على ألا يتوغل السيد خوان دى أوستريا فى البشرات، بل يتمركز فى شريش أو فى أى من بقاع سند وادى آش التى يمكنه فيها التزود بالمؤن، لكى يرسل من موقعه من يقوم

(١٠) انظر الفصل السابق. (المترجمة)

بشن غارات على الأعداء. بيد أنه تم الاتفاق لاحقًا على ألا يبرح وادى آش، وأن تتولى قوات المشاة التابعة لوحدات الجيش الإسبانى وألوية الفرسان الهجوم على ميناء لوه، وأن تقوم باتلاف الأراضى وتخريبها، والقضاء على محاصيل الذرة التى كانت قد شرعت فى النضوج؛ ثم تتوجه إلى كاديار للانضمام إلى الجيش الذى يترأسه القائد العام لقوات قشتالة، وأن تصبح رهن إشارته. أراد السيد خوان دى أوستريا أن يكافىء السيد فرانثيسكو دى كوردوبا على الخدمة التى قدمها لجلالة الملك من خلال إمداده بعدد من التنبيهات حول بعض الأمور، فأمر بأن يُرسل إلى إيرنان بايى دى بالاثيوس تصريح مرور لكى يبعث به إلى فرانثيسكو دى كوردوبا، على أن يكتب إليه رسالة يطالبه فيها بأن يحضر بمفرده لتسليم نفسه، إذا لم يتسن له جلب أفراد آخرين معه، لأن السيد خوان يود أن ينعم عليه ببعض الأفضال. فما كان منه إلا أن رفض الأخذ بتلك المشورة السديدة، وأجاب بقوله إنه يرى أن بمقدوره خدمة جلالة الملك على نحو أفضل من موقعه الذى يشغله وليس بقدومه للاستسلام. وقد حضر فى النهاية لتسليم نفسه فى أحد الكهوف التى هجم عليها جنود جيش القائد العام لقوات قشتالة، وقد تم اقتياده من هناك ليقوم بالخدمة على متن السفن على النحو الذى سنسوقه لاحقًا.